الأثر السياسي لفرقة الفداوية (من الباطنية) في الجبهة الإسلامية خلال الحروب الصليبية

إعداد :
الدكتور / إبراهيم بن محمد الحمد المزيني
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / كلية العلوم الاجتماعية
قسم التاريخ والحضارة

الرياض - ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

مقدمة:

شهدت الجبهة الإسلامية خلال الحروب الصليبية ظهور فرقة الفداويّة (إحدى فرق الباطنية الشيعية) التي كان لها أثر واضح في تفكك القوى الإسلامية في المنطقة عن طريق الفتك بزعماء أهل السنة، أو التحالف مع الصليبيين ضدهم في كثير من الأحيان مما شكل خطراً واضحاً على الأمة الإسلامية خلال ذلك العصر.

وتعرف هذه الفرقة في المصادر التاريخية بأسماء عديدة من أشهرها: (الباطنية، والإسماعيلية، والحشيشية، والنزارية، والفداوية) وإن كان الاسم الأخير قد اشتهر في عدد من هذه المصادر، فهو لكثرة استخدامه في بلاد الشام، وخطورة فرقة الفداوية بين فرق الباطنية لاشتهارهم بعمليات القتل والاغتيال سراً مما أرعب خصومهم، (وهم أصحاب الخناجر المسمومة) وهذه التسمية من باب تخصيص هذه الفرقة بالذكر، وإن كان المراد أحياناً فرقة الباطنية بعمومها.

ولم يقترن وجود هذه الطائفة بالوجود الصليبي في المنطقة، وإنما هي فرقة ذات جذور تاريخية بعيدة، وذات توجه عقدي خطير، استفادت من حالة الضعف والتمزق الذي أصاب العالم الإسلامي في الفترات السابقة على الوجود الصليبي، وتأكد خطرها خلال تلك الحروب والمواجهات التي تمت بين المسلمين والصليبيين في المنطقة، وكانت عاملاً من عوامل الضعف والتمزق في الجبهة الإسلامية آنذاك.

ووجود هذه الفرقة وسط طرفين متحاربين المسلمين السنّة والصليبيين فرض عليها أن تتخذ سياسة معينة تتفق مع مصالحها أولاً وقبل كل شيء، كما دفعها إلى تقوية نفوذها، وتعميق وجودها في المنطقة على حساب الصراع الدائر فيها، وكان من الطبيعي أمام هذه الظروف المتشابكة المتداخلة المعقدة أن يكون هناك اختلاط وتشابك بين تاريخ هذه الفرقة وتاريخ كل من المسلمين السنة في المنطقة، والصليبيين. ذلك أنّ كل طرف من الأطراف الثلاثة كانت له أهداف وغايات تشابكت وتداخلت فيما بينها أحياناً، وتعارضت وتنافرت أحياناً أخرى.

ولخطورة هذه الفرقة، وتردد ذكرها في أحداث الحروب الصليبية وجدت أنّ من الأهمية تتبع الأثر السياسي الذي تركته في الجبهة الإسلامية آنذاك، مع التقديم بتعريف سريع عن ماهية هذه الفرقة

وطبيعتها، وظروف انتقالها إلى بلاد الشام ومصر مسرح الأحداث الصليبية.

ولن يعمد هذا البحث إلى التوسع في التاريخ لهذه الفرقة مذهبًا وعقيدةً، لأنّ هذا سيخرجنا إلى مجال الدراسات المذهبية والعقدية، وهومجال له أهله ومتخصصوه، كما أنّ هذا البحث لم يقصد منه تتبع تاريخ تلك الطائفة وتسلسل أسماء شيوخها، وسني حكمهم ، وأبرز أعمالهم لأنّ هذا الأمر سُبقت إليه بتفصيل عند كثيرٍ ممن كتبوا عن هذه الفرقة، وإنما سيتم التركيز على الأثرالسياسي الذي تركته هذه الفرقة في الجبهة الإسلامية إبّان الحروب الصليبيّة.

وقد كانت الكتابة عن هذا الموضوع فكرة تراودني منذ زمنٍ مبكرلإحساسي بأهميته، والحاجة إلى طرقه، ولكن انشغالي بما هو أهم صرفني عن هذه الهمة، فأجلت ذلك إلى حينه. وحينما عدت إلى الموضوع وأخذت بجمع مادته العلمية، وبعد أن تجمّع لدي حصيلة لا بأس بها من المعلومات ذات العلاقة وقفت على عددٍ من المراجع الحديثة التي طرقت هذا الموضوع أوبعض جوانبه(١)، وكدت أتراجع عن المضي في إتمام الكتابة فيه، إلا أنني استشعرت أهمية الموضوع من جديد، وأدركت أنه من الموضوعات التي تحتاج مزيداً من الدراسة والبحث، لأهميته وتشعب آثاره، خاصة إذا وجهت الدراسة إلى تقصي الأثر السياسي الذي تركته تلك الفرقة في الجبهة الإسلامية آنذاك، فمضيت مستعينًا بالله عزّوجلّ في إتمام الدراسة.

الفداوية وطبيعة مذهبهم:

أشير بداية إلى أنّ اسم الفداوية من الأسماء التي شاع إطلاقها على هذه الفرقة في بعض مصادر العصر، ويقصد بها(الباطنية):وهي فرقة نشأت فرعًا مستقلاً من فرق الشيعة، وذلك بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ(٧٦٥م)، حيث نادى أصحاب هذه الفرقة بالإمامة من بعده لابنه إسماعيل دون أخيه موسى الكاظم. كماعرفت هذه الطائفة بالإسماعيلية أو السبعية لأنّ إسماعيل في نظرهم هو الإمام السابع.(٢) وعرفت فيما بعد في مختلف البلاد الإسلامية بأسماء مختلفة مثل:«المزدكية، والتعليمية»، وعرفت في بلاد الشام أيام الحروب الصليبية بالحشيشية والفداوية، وهما أشهر

---

(١) سيرد ذكر لمجموعة من هذه المراجع ضمن هوامش البحث، وسيتم سردها في قائمة المراجع في نهاية البحث.

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل.١/١٦٧- ١٩١.

القابها.[3] وسبب ذلك فيما يبدو أنهم في بلاد الشام أقرب ما يكونوا للتنظيم العسكري (الفداوي).

وكان أهم مايقوم عليه المذهب الباطني أو الإسماعيلي هو إيمانهم بأنّ للعقيدة ظاهراً وباطناً، وأنّ الشخص الذي يدرك كُنه الباطن ويتبعه لايستحق العقاب، وقد أدى بهم هذا الرأي إلى تأويل أحكام الشريعة، فجعلوا لكل نوع من أنواع العبادات باطناً وجعلوا للتنزيل معاني ظاهرة يعرفها الناس، وأخرى باطنة يعرفها الإمام وحده دون سواه، ولذلك سموا أتباعه بالباطنية.[4]

كما أنّ هناك من يذكر أن هذه الفرقة إنما سميت بالباطنية نسبة إلى قول دعاتها بالإمام الباطن أو المستور، أولقولهم أن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً وربما عرفوا بذلك أيضاً لأنهم كانوا يكتمون مبادءهم ويلقونها سراً إلى الحكام.[5]

وقد اتخذ أصحاب هذه الفرقة التفسير وسيلة لنشر مبادئهم، ولجأوا إلى التأويل كذلك. فهم يؤكدون على ضرورة وجود الإمام يقول الغزالي : « وإنما لقبوا بها - يعني الباطنية - لدعواهم أنّ لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللبّ من القشر ».[6]

وقد اتخذ الباطنية الاغتيال وسيلة لهم في التخلص من أعدائهم، وكان يتولى هذه المهمة فئة منهم تسمى الفداوية أصحاب الخناجر المسمومة، وهم الذين كانوا يضحون بأنفسهم فداءً لرئيسهم، وهم ماسنتعرف عليهم عند الحديث عن مراتب الفرقة. كما ذكر ابن الفرات أنّ الإسماعيلية يقال لهم الفدائية.[7] وهذا سر إطلاق اسم «الفداوية» على هذه الفرقة.

---

(٣) أسامة زكي زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية، ص٥٤.

(٤) عن آراء الباطنية ومذهبهم انظر: الغزالي: فضائح الباطنية، ص١١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٨/٢٠٠-٢٠٤.

(٥) الغزالي، فضائح الباطنية ص ١١، ١٢ ؛ الشهرستاني، الملل والنحل ٢/٥، ٦، ٥٩.، ويوضح الغزالي هدفهم من هذا السلوك بقوله: « وغرضهم الأقصى إبطال الشرائع ، فإنهم إذا انتزعوا عن العقائد موجب الظواهر قدروا على الحكم بدعوى الباطن على حسب مايوجب الانسلاخ عن قواعد الدين إذ سقطت الثقة بموجب الألفاظ الصريحة فلا يبقى للشرع عصام يرجع إليه ويعول عليه»(ص١٢)

(٦) فضائح الباطنية، ص١١.

(٧) تاريخ الدول والملوك ص١٥٣-١٥٤.

أما عن تسميتهم بالحشيشيّة، فإنه يفهم ممانكره المؤرخون أنّ داعي دعاة الباطنية، والمسمى شيخ الجبل في ألموت،[٨] أنشأ حديقة غناء فيها كل مالذّ وطاب، وحاول أن يظهر بها بعض الأصناف التي ذكرت في الجنة من نخيل وأعناب وفواكه وغير ذلك، وبعد أن يتسامر داعي الدعاة مع فرقة الفداوية المناط بهم أمر اغتيال شخص معين يساق بينهم مشروب الحشيش إلى أن يتم تخديرهم، ثم ينقلون إلى تلك الحديقة، وهناك يفيقون فيجدون أنفسهم بين حدائق غناء وفاكهة، وبنات غانيات يذكر لهم أنهن الحور العين. وبعد أن ينغمسوا بما في هذه الحدائق يتم تخديرهم مرة أخرى ثمّ ينقلون إلى حضرة داعي الدعاة الذي يسألهم أين كانوا، فيجيبون أنهم كانوا بالجنة. ويقصون عليه ماشاهدوه من نعيمها، وهنا يقول لهم إذا أردتم أن تنعموا بتلك الجنة مرة أخرى عليكم بقتل فلان، ويحدد لهم الشخص المراد قتله، فلا يتردد هؤلاء الفتية في تنفيذ ما طلب منهم طمعاً في الرجوع إلى تلك الجنة مرة أخرى وقد أيّد هذا الوصف الرحالة البندقي ماركوبولو(٦٥٢-٧٢٥هـ/١٢٥٤-١٣٢٤م) الذي زار المنطقة فيما بين عامي ٦٧٠-٦٧١هـ(١٢٧١-١٢٧٢م) أيام حكم شيخ الجبل علاءالدين، وأشار إلى أنه رأى هذه الجنّة بنفسه.[٩]

وفي الواقع أنه رغم تأكيد الرحالة ماركوبولو كشاهد عيان لوجود هذه الجنّة إلا أنه لا يوجد أي دليل يؤكد صحة ذلك ، إذ يستبعد أسامة زكي زيد ذلك، ويعده ضرباً من الخيال والأساطير، ويدعم زعمه هذا بعدد من الآراء والدلالات .[١٠]

ومن ناحية أخرى فإنّه ينكر أنّ أتباع تلك الطائفة كانوا لا يعبأون بالموت لإيمانهم بأنّ الشخص إذا مات في سبيل سيده شيخ الجبل، أو لأي سبب آخر ضمن نطاق المذهب حلت روحه في جسد شخص آخر، وهي أكثر راحة واطمئناناً.

---

(٨) الموت: كلمة ديلمية معناها «المكان الذي أرشد إليه العقاب» ويذكر ابن الأثير أنها من نواحي قزوين قيل أن ملكًا من ملوك الديلم كان كثير التصيد فأرسل يومًا عقابًا وتبعه فراه قد سقط على موقع هذه القلعة فوجده موضعًا حصينًا فأمر ببناء قلعة عليه فسماه إله موت ، ومعناه تعليم العقاب ، ويسمى هذا الموضع الطالقان.(الكامل٨/٢٠١)

(٩) الرحالة البندقي، ماركوبولو،ص٦٤-٦٥.

(١٠) الصليبيون وإسماعيلية الشام،٦٩-٧٣.

ومما يذكر هنا أنه أطلق عليهم اسم الحشاشين أوالحشيشية نسبة إلى مادة الحشيش التي يتم تخديرهم بها، وهو من أسمائهم.

ومما يلفت الانتباه هنا أيضاً: أن بعض علماء اللغويات يؤكد أن الفعل الإنجليزي(to assissinate)، بمعنى يغتال أو يقتل، والاسم منه (ass;issin) بمعنى قاتل أنه مشتق من الحشاشين بقلب الشين سيناً نسبة لتلك الفئة من الفداوية الذين اشتهروا بالقتل والاغتيال في عصر الحروب الصليبية، وهم الذين أطلقت عليهم بعض المراجع الحديثة اسم « الحشيشية » لتناولهم الحشيش، وقد جاء في «قاموس أكسفورد» أنّ أصل هذا اللفظ الأوربي هي كلمتا (حشاش، وحشيشية) العربيتان، ويدلل هؤلاء العلماء على رأيهم بأنّ ذلك اللفظ لم يظهر بمعناه المراد هنا في اللغات الأوربية إلا في عصر الحروب الصليبية.(١١)

وكان لهذه الفرقة أثرٌ خطيرٌ في تاريخ الجبهة الإسلامية زمن الحروب الصليبية عن طريق مباشر أو غير مباشر في مجرى تلك الحروب وأحداثها، مما يؤكد أهمية هذا الموضوع وضرورة إفراده بدراسة علمية مستقلة.

ذلك أنه حدث في الوقت الذي كان فيه المسلمون في حال دفاع ضد الصليبيين أن تعرضوا لطعنات قوية من الخلف من جانب هذه الفرقة، مما كان له أثره البالغ في إضعاف المسلمين وإحداث ثغراتٍ واسعة في جبهتهم، وهذا عامل ضعف قوي أضيف إلى عوامل الضعف والتفكك التي مني بها المسلمون، وتعرضت لها الجبهة الإسلامية في تلك المرحلة الحرجة من تاريخهم في الوقت الذي ازداد فيه تمالكُ أعدائهم الصليبيين، وحرصُ أمرائهم على تحالفهم فيما بينهم وشد أزر بعضهم بعضا.

ولكن يحسن بنا، قبل أن نلجأ إلى هذه الأحداث، وما تركته هذه الفرقة من آثار في تمزيق وحدة المسلمين في ذلك الوقت، أن نتلمس، ولوبشكل سريع، نشأة هذه الفرقة في كلٍ من بلاد العراق وفارس، ومن ثم امتدادهم إلى بلاد الشام ومصر، وأثرهم في أحداث تلك البلاد.

---

(١١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية،١/٥٣٩، وقد حرصت على عدم الاسترسال في سرد الأسماء التي أطلقت على هذه الفرقة ، وتعليلاتها ، ومدى صحتها لعدم مناسبته هنا من ناحية، ولتغطيته من قبل عدد من المؤرخين والباحثين من ناحية أخرى. انظر (أسامة زكي زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام،٨١-٨٨).

فرقة الباطنية في كلٍ من العراق وفارس:

وجدت الدعوة الباطنية أو الإسماعيلية طريقها إلى بلاد فارس والعراق بداية الأمر امتداداً للدعوة الفاطمية الشيعية على يد داعي الدعاة الفاطمي الشيرازي الذي كان له أثر كبير في نشر المذهب الشيعي في بلاد العراق للخليفة الفاطمي المستنصر بالله، واعتمد في ذلك على تأييد السلطان البويهي أبي كاليجار الذي كان لايخفي ميله للفاطميين.(١٣)

وكان أول دعاة الباطنية بفارس والعراق أحمد بن عبدالملك بن عطاش الذي قدمه الباطنية عليهم والبسوه تاجاً وجمعوا له الأموال.(١٤) وبعد موته سنة ٤٧٢هـ(١٠٧٩م) حلّ محله الحسن بن الصباح(١٥)، الذي يعدُّ من أهم دعاة الباطنية، وأكثرهم أثراً في المذهب. وكان كما وصفه المؤرخون شهماً ذكياً عالماً بالهندسة والحساب. (١٦)

وقد نشأ الحسن بن الصباح في الري، وتأثر في شبابه بالدعوة الإسماعيلية. ولما تسلّم قيادة المذهب ذاع صيته، في بلاد فارس، وساعده في ذلك تفكك الدولة الإسلامية وضعف الخلافة العباسية من ناحية، ثمّ بُعد فارس عن مركز الخلافة من ناحية أخرى. ويؤكد برنارد لويس أثر ذلك بقوله: « لقد أظهرحسن الصباح عبقرية سياسية في إدراك ضعف الحكومات الإسلامية وقد أبدى مواهب إدارية

---

(١٢) أحمد كمال الدين حلمي، السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص١٦٧-١٨٧.

(١٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٥٣٦/١.

(١٤) هو حسن بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسن بن الصباح الحميري، ولد في مدينة الري سنة ٤٤٤هـ (١٠٥٢م)، وتلقى العلم في مدينة نيسابور على يد الموفق النيسابوري أحد علماء السنة المشهورين في ذلك الزمان ، ولم يكن تعلمه للمذهب السني مقصوداً لذاته، وإنما كان لقصد التمويه، حيث كان التشيع آنذاك أمراً ممقوتاً ومسبّة على معتنقه. وقد التحق ابن الصباح في خدمة السلطان السلجوقي ملكشاه ، وحاول أن يفسد العلاقات التي تربط السلطان بالوزير نظام الملك حتى ينفرد في حظوة السلطان ، ولكن الوزير شعر بذلك فعمل على طرده من القصر السلطاني، فحمل ابن الصباح كرهاً لنظام الملك ، وبيّت الغدر به ، فكان أول عمل قام به بعد تكوين دولته في ألموت هو التخلص من نظام الملك عن طريق أحد فداويته في رمضان سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م)، وقد مات ابن الصباح سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م) (ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٢٠٣/١).

(١٥) سعيد عاشور، المرجع نفسه، ٥٣٦/١- ٥٣٧.

استراتيجية رائعة في استغلالها في الهجوم الإرهابي» (١٦)

وقد لجأ ابن الصباح في نشر دعوته إلى سلاحين، الأول: استمالة بعض الزعماء المحليين وأمراء القلاع في بلاد فارس، والثاني: محاولة امتلاك بعض القلاع المنيعة لتكون معاقل له ولأتباعه، يحتمون بها من مطاردة الخلافة العباسية السنية وحماتها من سلاطين السلاجقة، وكانت أهم القلاع التي استولى عليها الحسن بن الصباح قلعة ألموت في طبرستان قرب قزوين، وقلعة شاه دز، وقلعة خان، وهما على جبل أصبهان قرب العاصمة أصفهان. (١٧)

وقد طاف الحسن بن الصباح البلاد، وعاش بمصر حوالي عام ونصف العام، والتقى الخليفة المستنصر الفاطمي مرة واحدة سنة ٤٧١هـ(١٠٧٨م)، وسأل المستنصر من الإمام بعدك ؟ فأخبره المستنصر أنّ الإمام بعده ابنه نزار ؛ ثمّ كان أن عاد الحسن بن الصباح إلى فارس، وأخذ يدعو لنزار، ثم حدث بعد ذلك نزاع حول ولاية العهد بين ابني المستنصر نزار والمستعلي، وانقسم الإسماعيلية إلى فريقين، فريق يناصر نزاراً، والآخر يناصر المستعلي. ولم يتمكن نزار من الوصول إلى العرش، وهزم وأسر ومات في الأسر. غير أن الحسن بن الصباح رفض بيعة المستعلي، واستمر يدعوا لنزار مكوناً طائفة النزارية.. (١٨)

وقد اتخذ الحسن بن الصباح قلعة ألموت - الحصن الجبلي المنيع قرب قزوين والمسمى عش العقاب لمناعته - معقلاً للباطنية سنة ٤٨٣هـ(١٠٩٠م)، وأصبحت هذه القلعة نواة لظهور دولة الباطنية في المنطقة، والتي أصبحت فيما بعد ضربة قوية لسلاطين السلاجقة، وشوكة في نحورهم حيث إنها أصبحت مصدر خطر عظيم بالنسبة لهم، فحاولوا إخضاعها أكثر من مرة إلا أنّ محاولاتهم باءت بالفشل، وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد.

وبفضل ما اشتهر به ابن الصباح من الدهاء والحنكة ، فقد وضع لأتباعه تنظيماً دقيقاً، وقسّم الدعوة الباطنية إلى عدة مراتب وفق تنظيم محكم أساسه مبدآن هما : السرية التامة، والطاعة العمياء. كما ألّف كتاباً من أربعة فصول ضمّنه أهم مبادئ دعوته. ولما كان هدف الحسن تأسيس

(١٦) B. Lewis. The Assassins. A radical Sect. in Islam. P.127.

(١٧) ابن الأثير، الكامل ١٠/١١٧-١١٨.

(١٨) ابن كثير، البداية والنهاية،١٢/١٤٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،٥/١٤٥.

دولة كبيرة ثابتة، فإنه قسّم الدعوة إلى خمس مراتب هي:

١- مرتبة شيخ الجبل: وهو الحسن نفسه وخلفاؤه من بعده الذين يجمعون في قبضتهم أمور الدولة والدعوة معًا، فكانوا يصدرون تعاليمهم إلى أتباعهم في فارس والعراق والشام وغيرها من البلاد.(١٩)

٢- مرتبة كبار الدعاة: وكانوا ثلاثة، كل واحد منهم يتولى مهمة نشر الدعوة الفاطمية في جزء من العالم الإسماعيلي، على أن يخضع ثلاثتهم للحكومة المركزية في ألموت.(٢٠)

٣- الدعاة: وهم جماعة من المعروفين بصدق عقيدتهم يتبعون كبار الدعاة، ويتلقون تعاليمهم من قلعة ألموت ثم ينشرون الدعوة، ويعطون العهود للمستجيبين لها.(٢١)

٤- مرتبة الرفاق: وهم دعاة تحت التمرين لم يسمح لهم بعد بنشر الدعوة، ويصل الواحد منهم بالتدريج إلى مرتبة الدعاة بعد اختبارات طويلة ودقيقة.(٢٢)

٥- مرتبة الفداوية أو الفدئيين، وهم الذين كانوا يضحون بأنفسهم فداء رئيسهم، وطمعًا في الخلود بالجنّة، وقد أصبحوا الأداة التي استخدمها الحسن ابن الصباح وغيره من دعاة الباطنية في تصفية خصومهم. ويختار هؤلاء عادة من الفتيان الأقوياء الذين تتفاوت أعمارهم بين الاثنتي عشرة سنة والعشرين، ويعدون إعدادًا خاصًا بتمرينهم على تحمل المشاق وشظف العيش واستعمال السلاح مع تعلمهم عدة لغات وآداب التصرف في البلاطات، وأهم من ذلك كله توجيههم إلى فكرة ثابتة هي الإخلاص إلى السيد الذي هو كفيل بنقلهم من عالم اتصف أهله بالكتب والخداع إلى عالم الحقيقة، عالم الدين والتقوى الذي يعود بهم إلى الصلاح الأبدي(٢٣)

ومن الواضح أنه روعي في اختيار هذه الفرقة الشجاعة التي هي أقرب إلى التهور والقوة البدنية الفائقة التي تمكنهم من أداء المهام الخطيرة التي تناط بهم.

ومن التنظيم السابق يبدو لنا أنّ الفداوية كانوا هم أهم مراتب التنظيم الإسماعيلي بوصفهم الأداة

(١٩) طه أحمد شرف الدين، الدولة النزارية ص ٨٠.

(٢٠) سعيد عاشور، مرجع سابق، ٥٢٧/١.

(٢١) سعيد عاشور، المرجع نفسه ٥٢٨/١.

(٢٢) نفسه، ٥٢٨/١.

(٢٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ٢٧١/٤-٢٧٣.

العاملة التي قامت فعلاً بتنفيذ سلسلة الاغتيالات الشهيرة في عصر الحروب الصليبية، لذلك اهتم الحسن بن الصباح بتدريب الفداوية تدريبًا خاصًا طويلاً يتناول الجانبين الروحي والمادي، ويبدأ من الطفولة، فيدرب الأطفال المختارون لتلك المهمّة على حياة الزهد والمخاطرة والرغبة في التضحية.(٢٤) وقد مرّ بنا سابقًا حديثٌ عن إغراءاتهم بملذات الجنّة، وغير ذلك من الأحلام.

وبهذا نجح الحسن بن الصباح في تأسيس هذه الدولة في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، واتخذ من ألموت عاصمة لها، أخذ يبثُّ منها الدعاة، ويعمل على نشر الدعوة الإسماعيلية، وتعزيزها. وقد قدّر لتلك الدولة أن تهزّ عروش الملوك والسلاطين، لأنها أصبحت مصدر خطر بالنسبة لهم، فحاولوا إخضاعها، إلا أنّ محاولاتهم باءت بالفشل.

وكان أسلوب الاغتيال هو الوسيلة المشروعة عند هؤلاء الفداوية لتنفيذ خططهم وأعمالهم، وقد أثار هذا العمل الرعب والخوف في نفوس أهالي فارس والعراق، ويذكر برنارد لويس أن ضحايا هؤلاء يتركزون في مجموعتين إحداهما تكون من الأمراء والوزراء، والمجموعة الثانية من القضاة والشخصيات الدينية.(٢٥)

وبالفعل، فقد كان من أوائل ضحاياهم في تلك الفترة المبكرة الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي، الذي ناصبهم العداء بعد استيلاء الحسن بن الصباح على ألموت، فلم يترددوا في التخلص منه عن طريق القتل سنة ٤٨٥هـ(١٠٩٢م)، ويذكر ابن خلكان أنّ نظام الملك قُتل في شهر رمضان بعد تناوله طعام الإفطار، وفي أثناء خروجه لزيارة بعض أهله، حيث اعترض طريقه غلام ديلمي من الباطنية، أظهر أن معه ظُلامة، فلما مدّ نظام الملك يده لتناولها طعنه الصبي بسكين في قلبه، فسقط فاقد الوعي، وتوفي بعد أن وصل إلى مسكنه، في حين قبض رجال نظام الملك على القاتل وقتلوه.(٢٦) على أنها توجد عدة روايات في قتل نظام الملك منها أن السلطان ملكشاه دسّ له من قتله لعداوة نشأت بينهما، ومنها أنّ تركان خاتون زوجة ملكشاه هي التي حقدت عليه، لأنه كان يميل إلى تولية

---

(٢٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية،١/٥٣٨.

(٢٥) Ibid., P134.

(٢٦) وفيات الأعيان،١/٣٩٨.

بركياروق العهد، وهو ابن ضرتها بدلاً من ابنها الصغير محمود، فدبرت مقتله.[٢٧]

على أي حال فإنّ في مقتل نظام الملك خسارة فادحة على العالم الإسلامي لما له من جهود كبيرة في تنظيم الدولة، وترتيب أمورها، ويكفيه فخراً ماله من أثر في تأسيس المدارس السنية، والتي تسمى المدارس النظامية، ونشرها.

ومما يشهد على الأثر الذي تركه اغتيال نظام الملك، والنتائج التي ترتبت على ذلك ما سجله المؤرخ ابن أبي الدم في كتابه التاريخ المظفري، إذ يقول: «لما قتل نظام الملك تشوشت أمور السلطان ملكشاه، واختلت الأحوال فطاح العدل، وانطفأت أنوار العلم، ودرست معالم الفضل، ولم يبق منها إلا الرسوم».[٢٨] كما برر ابن القلانسي أسف الناس عليه بقوله: « لما كان عليه من حسن الطريقة وآثارها العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقه والقرآن».[٢٩] وبعد مقتل نظام الملك بشهر وأيام توفي السلطان ملكشاه في شوال من سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م). وقد أشار السيوطي إلى أنّ أمر الباطنية قد ازداد بالعراق بعد مقتل نظام الملك ووفاة ملكشاه، فعملوا على تدعيم نفوذهم في هذه المنطقة عن طريق الاستيلاء على عدة قلاع جديدة على غاية من الأهمية، ثم بنشر مذهبهم بكل الوسائل الممكنة، والعمل على إسكات الخصوم بكل ما يمكن لهم من أنواع الإرهاب والقمع، وزاد قتلهم الناس، واشتد الخطب بهم حتى كان الأمراء يلبسون الدروع تحت ثيابهم.[٣٠]

وقد استغل الباطنية الصراع الذي احتدم في البيت السلجوقي بعد وفاة السلطان ملكشاه بين ابنيه بركياروق ومحمود الذي ساندته أمه تركان خاتون، ثم لم يلبث أن شاركهما عمهما تُتش الذي كان نائباً عن ملكشاه في حكم بلاد الشام، ولم ينقطع هذا الصراع طيلة سنتين وبضعة أشهر إلا بوفاة محمود بن ملكشاه ومصرع تتش سنة ٤٨٨هـ(١٠٩٥م) وتولي بركياروق عرش السلطنة.[٣١]

وقد استغل الباطنية هذه الفرصة أقوى استغلال، حيث تقلبوا في ولائهم بين المتنازعين، ونجحوا

(٢٧) ابن الأثير ، الكامل ٨/١٩١-١٩٢.

(٢٨) التاريخ المظفري، ورقة ٩١.

(٢٩) تاريخ دمشق ص١٢١.

(٣٠) تاريخ الخلفاء ، ص٤٢٨.

(٣١) البنداري، مختصر تاريخ آل سلجوق ص٨٥.

في تنفيذ عدد من مخططاتهم، وحققوا عدداً من المكاسب، فنجحوا بعد قتل نظام الملك من قتل السلطان العادل ألب أرسلان بن داود أخي طغرلبك سنة ٤٩٠هـ(١٠٩٧م) على نهر جيحون، حيث اغتاله أحد الباطنية الذين تنكروا في زي الفقهاء.(٣٢)

وتعرض وزير أم السلطان بركياروق المسمى عبد الرحمن السميرمي للقتل على يد الباطنية، وقتلوا أيضاً أرغش النظامي مملوك نظام الملك بالري « وكان قد بلغ مبلغاً عظيماً بحيث تزوج ابنة ياقوتي عم السلطان بركياروق»(٣٣)

وقتلوا في العام نفسه الأمير برسق وهو من أكابر الأمراء ومن أصحاب السلطان طغرلبك، وكان هو أول من تولى وظيفة الشحنة في بغداد(٣٤)

وفي رمضان عام ٤٩٣هـ(١١٠٠م) قتلوا الأمير بلكابك سرمز بأصبهان، وكان من رجال السلطان السلجوقي، وكان يحتاط دائماً من الباطنية لايفارقه لبس الدرع ومن يمنع عنه. لكنه في يوم مقتله لم يلبس درعه، وعندما دخل إلى دار السلطان وثب عليه باطني فقتله.(٣٥)

وقد حاول السلطان بركياروق أن يضع حداً لتلك الأعمال، فبدأ بمحاربتهم وتعقبهم في كل مكان خاصة في أصبهان مركز دعوتهم، فتضافرت جهود الأهالي في أصبهان على الإطاحة بهم، من ذلك ما قام به الفقيه مسعود بن محمد الخجندي من حفر أخاديد أوقد فيها النار، وجعل العامة يأتون بالباطنية أفواجاً ومنفردين فيلقونهم في النار.(٣٦)

وكانت أبرز الجهود التي بذلت ضد الباطنية في ذلك الوقت ما قام به السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي الذي أدرك خطر هذه الفرقة، وأيقن ضرورة القضاء عليهم في أسرع وقت، فأمر أصحابه بمحاصرة القلعة التي كانوا يقيمون فيها بأصبهان وهي شاهدز «شاه دز» وتمّ الاستيلاء عليها في ذي القعدة سنة ٥٠٠هـ(١١٠٧م) بعد حصار دام ثلاثة أشهر، وتمّ قتل الزعيم الكبير أحمد بن عطّاش

(٣٢) ابن الأثير، الكامل٨/١٨٢.

(٣٣) المصدر نفسه، ٨/١٨٥.

(٣٤) نفسه٨/١٨٥.

(٣٥) نفسه٨/١٩٦.

(٣٦) ابن الأثير، الكامل٨/ ٢٠٠.

الذي كان متحصناً بها وقتل معه ابنه بعد أسرهما.[٣٧]، وقد شجع هذا الانتصار الذي حققه السلطان على الباطنية في شاه نر على ملاحقتهم في عاصمتهم ألموت. ففي عام ٥٠٣هـ(١١٠٩م) قام بمحاصرتها، لكنه اضطر إلى الرحيل عنها عند حلول الشتاء. وحاول الباطنية الانتقام منه في العام نفسه، فترصدوا له في أحد مساجد بغداد، وطعنوه بالسكاكين عدة طعنات لم تكن قاتلة، فبرئت جراحه بعد ذلك بزمن قصير.[٣٨] كما قام السلطان بقتل وزيره سعد الملك الأبي لما أحس بأنه متواطىء مع الباطنية ويتصل بهم في الخفاء. وقد كثرت حملات السلطان محمد على الباطنية من أجل محو آثارهم وإخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم.[٣٩]

ولم يقم السلاجقة بمحاولة ذات شأن للقضاء على هذه الفرقة بعد وفاة السلطان محمد سنة ٥١١هـ(١١١٧م) إلا بعد موت الحسن بن الصباح سنة ٥١٨هـ(١١٢٤م)، إذ شجع ذلك سنجر على ملاحقتهم من جديد ظناً منه أنّ أمرهم قد هان بعد وفاة زعيمهم، والعقل المدبر لهم، فقام بمهاجمتهم في ألموت سنة ٥٢١هـ(١١٢٧م) واستطاع أن يقتل منهم خلقاً كثيراً قدروا بما يزيد على عشرة آلاف نفس. [٤٠]

ولكن على الرغم من الجهود التي بذلها السلطان محمد ومن خلفه من سلاطين السلاجقة في إضعاف هذه الفرقة ومحاولة القضاء عليها، إلا أنهم نجحوا في تنفيذ كثير من مخططاتهم، واستمروا في عمليات الاغتيال لعدد من قادة المسلمين في المنطقة، ووصلوا زعزعتهم للجبهة الإسلامية في كل مكان، ولم يفرقوا بين دين أو مذهب أو لغة، بطشوا بكل من خالفهم مما أدى إلى التفكك وبث الذعر في البلاد.[٤١]

---

(٣٧) المصدر السابق٨/٢٤٢.

(٣٨) نفسه، ٨/٢٥٩.

(٣٩) نفسه، ٨/٢٧٨.

(٤٠) نفسه، ٨/٣٢٥.

(٤١) عفاف صبره، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٥٤.

امتداد نشاط الباطنية (الفداويّة) إلى بلاد الشام ومصر:

من الثابت أنّ نشاط الفداويّة قد امتد إلى بلاد الشام منذ أيام الملك السلجوقي رضوان بن تتش صاحب حلب (٤٨٨-٥٠٧هـ/١٠٩٥-١١١٣م) حيث عمل على استمالته إلى الفداويّة الحكيم بن المنجم الباطني أحد دعاتهم، وظهر مذهبهم في حلب وشايعهم رضوان، وحفظ جانبهم، وصارت لهم في بلاده قدرة زائدة وجاه عظيم، وأصبحت لهم قيهادار للدعوة.(٤٠)

و يعدّ الملك رضوان هو أول من أنشأ للباطنية دار دعوة ببلاد الشام، حيث أدى تشجيعه لهم إلى انتشار مذهبهم وازدياد نفوذهم حتى احتمى بهم الأهالي، وأصبح كل من تحلُّ به مصيبة أوضيم يحتمي بهم. كما دخل كثير من الأهالي في مذهبهم خوفاً منهم واتقاءً لشرهم.(٤١)، وبامتداد نشاط الفداويّة إلى بلاد الشام في تلك الفترة الحرجة ازداد الوضع في المنطقة فوضىً واضطراباً، وأضاف عاملاً جديداً من عوامل الصراع والتنافس داخل تلك البلاد، وأخذ رجال الفداويّة يوجهون نشاطهم ضد المسلمين، حيث قاموا بعمليات اغتيالات واسعة ضد عدد من قادة الجبهة الإسلامية في تلك الأثناء، كما أنهم تحالفوا في فترات كثيرة مع الصليبيين ضد المسلمين، الأمر الذي أدى إلى زيادة التفكك والتمزق في بلاد الشام في ذلك العصر.

وباستقراء سريع لأحداث الساحة الإسلامية في تلك الفترة، يتضح لنا الدور الكبيرالذي قامت به تلك الفرقة في أحداث المنطقة، كما يتضح لنا أن هذا الدور قد سار باتجاهين هما:

الأول:مقاومة المذهب السني، والعمل على الفتك بعدد من زعمائه وقادته. ويمكن أن يدخل ضمن ذلك التحالف مع الصليبيين على حساب الجبهة السنية.

ثانيهما:مقاومة الصليبيين وقتل بعض زعمائهم. إذلم يفرق الفداويّة في ذلك بين المسلمين السنيين والصليبيين النصارى، وإنما اهتموا بتحقيق مصالحهم على حساب الفريقين جميعاً.(٤٢)

وبهذا، فقد أدى اتساع نشاط الفداويّة في بلاد الشام بوجه خاص إلى إضافة عامل جديد إلى عوامل التفكك التي تعرضت لها الجبهة الإسلامية إبان الحروب الصليبية،ذلك أنه حدث في الوقت الذي كان فيه المسلمون في حال دفاع ضد الصليبيين أن تعرضوا لطعنات قوية من الخلف من جانب

---

(٤٢) ابن القلانسي، تاريخ دمشق،ص١٤٢؛ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب،٢/١٤٥.

(٤٣) ابن العديم . المصدر نفسه،٢/١٤٥.

(٤٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ١/٥٣٩.

الفداويّة، مما أضعف المسلمين وأحدث ثغرة قوية في جبهتهم، في الوقت الذي شهد تماسكاًقوياً في الجانب الصليبي، وحرص أمراؤهم على شدّ أزر بعضهم بعضا.(٤٥)

من ذلك مافعله الفداويّة في حصن شيزر سنة ٥٠٢هـ(١١٠٩م)، إذ ثار جماعة منهم على حين غفلة من أهله فملكوه، وأخرجوا من فيه وانتزعوه من أصحابه بني منقذ.(٤٦)

وكان القتل هو السلاح الرهيب الذي نهجه الفداويّة في تنفيذ أغراضهم والتخلص من خصومهم لدرجة أنه يضيق المقام عن حصر ضحاياهم من الأمراء والقادة وغيرهم في عصر الحروب الصليبية.

وهذا من أسباب ميل رضوان لهم وعطفه عليهم، وذلك للحاجة الماسة إليهم في مثل ذلك الوقت، فقد استعان بهم بشكل واضح، حتى أنه اتخذ منهم جنداً وحماة له داخل حلب.(٤٧) كما اعتمد عليهم في التخلص من بعض أعدائه المناوئين له حسب طرقهم الفداوية السرية التي اشتهروا بها، من ذلك قيامهم بقتل جناح الدولة الحسين صاحب حمص في رجب سنة ٤٩٥هـ(مايو١١٠٢م) بوازع من الملك رضوان نفسه حسب إشارة أغلب المصادر.(٤٨)

ونظرًا لكون طبيعة الفداويّة وعقائدهم المؤسسة على الفتك والغدر، أصبحت من الأمور الهدامة في حلب ومثار خوف وانزعاج الناس في ذلك الزمان، فقد كاتب بعض الملوك والأمراء رضوان في أمرهم، ولفتوا نظره إلى خطأ الاعتماد عليهم. غير أنه لم يأبه بذلك ولم يعر مكاتباتهم أي اهتمام، واستمر في تأييده لهم.(٤٩)

وقد أثر تأييد رضوان لهم على علاقاته مع أقرانه من الملوك والأمراء كماأدى إلى غضب العامة

---

(٤٥) المرجع نفسه١/٥٤٠.

(٤٦) اسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٧٧؛ ابن الأثير، الكامل، ٨/٢٥٧.

(٤٧) العيني، ٢/٦٣٦.

(٤٨) ابن القلانسي، مصدر سابق، ٢٠٣ وقد جعل هذه الحادثة ضمن حوادث سنة (٤٩٦هـ)؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٨/٤.

(٤٩) ابن العديم، زبدة الحلب، ٢/١٤٥.

داخل حلب عليه، فأطلقوا ألسنتهم في سبه وعابوه لسوء تدبيره. (٥٠)

وكان أول من أظهر مذهب الباطنية في حلب هو الحكيم المنجم وأبوطاهر الصائغ، حيث وجدا كل تشجيع من رضوان، ومال إليهما خلق كثير من الباطنية في سائر مناطق حلب.(٥١)

وقد وصف ابن العديم تقرب الباطنية إلى رضوان، وأثر الحكيم المنجم في ذلك بقوله: « واستمال رضوان إلى الباطنية جداً، وظهر مذهبهم في حلب وشايعهم رضوان وحفظ جانبهم وصار لهم بحلب الجاه العظيم والقدرة الزائدة، وصارت لهم دار الدعوة بحلب في أيامه».(٥٢)

وقد وصف ابن الفرات أمر الباطنية في حلب بقوله: « عظم شأنهم وصار كل من يجني جناية منهم منعوه وحرسوه وكاتبوا الملوك في أمره حتى يخلصوه، فكثر بذلك أتباعهم واشتهر أمرهم واشتدت شوكتهم، وصار الرجل منهم يلقى الرجل من غيرهم فينزع عنه ثيابه ولايقدر على الامتناع عنه ولايجد ناصراً، ويلقى المرأة والصبي في الطريق فيغتصبه، ويذهب به أنى شاء، ولا يقدر أحد على استخلاصه. (٥٣)

ومماينكر هنا أنّ الحكيم المنجم قد مات بعد مقتل جناح الدولة بعدة أيام، ثم تولى أمر الباطنية في حلب نائبه أبوطاهر الصائغ الذي أصبحت حلب في عهده قلب الباطنية النابض في بلاد الشام، وكان أبوطاهر أكثر جرأة، وأعظم إقداماً من سلفه كما كان على جانب كبير من النفوذ والسلطان عند الملك رضوان.(٥٤)

وقد تقاسم أبو طاهر زعامة القداويّة في بلاد الشام مع زميل له يعرف بـأبي الفتح السرميني الذي

---

(٥٠) سعيد عاشور، الحركة الصليبية١/٣٩٣-٣٩٥.

(٥١) ابن القلانسي، تاريخ دمشق،ص١٨٩.

(٥٢) زبدة الحلب٢/١٤٥.

(٥٣) تاريخ ابن الفرات،ج١، ورقة ٧١.

(٥٤) ابن القلانسي، تاريخ دمشق،١٤٩.

اتخذ من سرمين[٥٥] مركزًا له، وكان رضوان قد منحها إياه حينما طلبها منه أبوطاهر الصائغ.[٥٦]

لكن ينكر هنا أنّ الملك رضوان لم يستمر في مؤازرته واحتضانه للباطنية بصفة مستمرة، فقد ساء موقفه عند السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٨-٥١١هـ/١١٠٤-١١١٧م) حيث بلغه ماشاع عنه من مشايعة الفداويّة، وقد لُعن رضوان في مجلس السلطان لذلك، فما كان منه إلا أن أمر في سنة ٥٠١هـ(١١٠٧م) أبا الغنائم ابن أخي أبي الفتح السرميني بالخروج من حلب فيمن معه من أتباعه الفداويّة، فخرج في جماعة من أصحابه بعد أن قُتل منهم كثيرون.[٥٧]

ولكن لا يعني أنّ الملك رضوان حينما أوعز إليهم بترك حلب أنه استغنى عن خدماتهم، إذ إنه لم يلبث أن دعاهم إليها، واعتمد عليهم في حفظ بلاده من الطامعين بها. وكان قد استعان بهم في حراسة قلعة حلب ضد قوات السلطان محمد الذي كان قد بعثها بقيادة مودود بن أيتكين وأحمد يل الكردي لنجدة أهالي الشام ضد غارات الصليبيين.[٥٨]

وهذا يؤكد أن الدافع الرئيسي الذي دفع رضوان إلى الاعتماد على الفداويّة هو رغبته في تحقيق بعض الأطماع الشخصية، ومحاولته الاعتماد على قوة تساعده في ذلك، حتى ولوكانوا من أعدائه في العقيدة، وهذا يوضح ما وصل إليه بعض حكام المسلمين من تخبط وسوء تدبير في ذلك العصر، وهو بالتالي عامل من عوامل الضعف الذي أصاب الجبهة الإسلامية آنذاك.

---

(٥٥) سرمين، بلدة مشهورة من أعمال حلب ذكر ياقوت أنّ أهلها في زمنه كانوا من الإسماعيلية (معجم البلدان،٣/٢١٥)

(٥٦) أسامة زكي زيد، مرجع سابق ص١٣٦.

(٥٧) ابن العديم، زبدة الحلب،٢/١٥٣.

(٥٨) ابن القلانسي، مصدرسابق،١٧٥؛ ابن العديم، مصدر سابق،٢/١٥٩.

قلاع الدعوة في بلاد الشام:

أدرك دعاة الفداويّة في بلاد الشام أنه من الضرورة البحث عن أماكن منيعة قوية التحصين، صعبة المنال، ليتركزوا فيها، ويتخذوهامواقع انطلاق لأعمالهم الإجرامية في المنطقة، ويتمكنوا من خلالها من مزاولة نشاطهم وسياستهم ضد المسلمين والصليبيين على السواء. وكانوا يحصلون على هذه المواقع إما بشرائها أو باحتلالها بالقوة. كما عمدوا إلى اتخاذ عددٍ من المواقع المنيعة في قمم الجبال لإنشاء قواعد جديدة لهم. وكان شيخ الجبل يختارعادةً أشد القلاع حصانة ومنعة ليتخذ منها مقراً له، أما باقي الدعاة فيتخذون من القلاع الأخرى العالية ملاجىء لهم.(٥٩)

وكان الحسن بن الصباح أول من خطط للاستيلاء على القلاع واتخاذها مقراً للباطنية، فبدأ بسياسته تلك في بلاد فارس، إذ استولى على قلعة شاه در باصبهان، ثمّ قلعة ألموت سنة ٤٨٣هـ(١٠٩٠م)، فضلاً عن عددٍ من القلاع المهمّة في بلاد فارس، وحينما اتجهت أنظاره إلى بلاد الشام وأدرك أهميتها للدعوة وخصوبتها لنشرها بدأ بإرسال دعاته إليها في أوائل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، فعملوا كلّ جهدهم من أجل الاستيلاء على عددٍ من القلاع في هذه المنطقة لتكون مراكز لتجمعات دعاتهم، ومواقع لبث مبادىء دعوتهم، فأقاموا فيها كل وسائل الراحة والرفاهية، وقد أكسبها وجودها على قمم الجبال قوة ومناعة. وكان من أهم قلاعهم: مصياف، والكهف، والخوابي، والقدموس، والرصافة، والعليقة، والمينقة، والمرقب.(٦٠)

وقد أصبحت هذه القلاع مراكز دعوة وتجمع لهذه الفرقة طيلة مراحل وجودهم في المنطقة، مكونين حزاماً حصيناً من القلاع يصعب اختراقه مما كان له أثر كبير في الدور الذي لعبته هذه الفرقة في بلاد الشام ضد المسلمين والصليبيين.(٦١)

---

(٥٩) أسامة زكي زيد، مرجع سابق،٨٨.

(٦٠) المرجع نفسه،ص ٨٩.

(٦١) أسامة زكي زيد، المرجع نفسه٨٩-٩٦، وقد أسهب في الحديث عن هذه القلاع بصورة تحليلية جيدة.

أثر الفداوية (الباطنية) في الجبهة الإسلامية:

ظهر للفداوية في بلاد الشام سياسة جديدة ضد خصومهم تعتمد على إظهار الصداقة والعداء في وقت واحد تحقيقاً لمصالحهم. وهذه السياسة تقوم على استغلال الحوادث والظروف لصالحهم، فكان أتباعهم يتقلبون في خدمة الأصدقاء والأعداء كلما أنسوا في ذلك غنماً لهم، وذلك مع مراعاة مصلحتهم أولاً وقبل كل شيء، وكانت تتساوى لديهم الأطراف المقابلة لهم في الودّ والعداء. وفي مقابل ذلك لم يتأخر زعماؤهم عن معاداة الصليبيين ومخالفتهم حيناً، ومواصلتهم ومهادنتهم حيناً آخر، وكذلك الحال مع المسلمين. وهذا الأمر أدى إلى اتساع نشاطهم في المنطقة ، وأضاف عاملاً من عوامل الضعف الذي تعرضت له الجبهة الإسلامية زمن العدوان الصليبي.

كما أنّ أخذت تعوق أي محاولة لمد النفوذ السني في المنطقة حتى ولوكان ذلك على حساب الصليبيين لاتفاق هذا مع سياستها العامة من ناحية، وحتى لايتغلغل النفوذ السني في المنطقة، ويكون حجر عثرة في طريق نموها ونشاطها، ويتضح ذلك جلياً بما قاموا به من عمليات اغتيال لعدد من قادة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين مما كان له أثره البالغ في مسيرة حركة الجهاد ضد الصليبيين في تلك الفترة.

وقد بدأوا تلك العمليات باغتيال جناح الدولة ابن الحسين صاحب حمص سنة٤٩٥هـ(١١٠٢م)، الذي كان على عداء مع الملك رضوان صاحب حلب، ولكنه في الوقت نفسه من ألد أعداء الصليبيين، خاصة ريموند التولوزي، حيث وقف جناح الدولة حائلاً بين ريموند وتحقيق أطماعه في طرابلس. لذا فقد افتتح الفداويّة نشاطهم في بلاد الشام بالتخلص من جناح الدولة بوازع من الملك رضوان نفسه الذي أرسل ثلاثة من رجالهم لاغتياله، فدبروا خطة لذلك، حيث انتظروه في جامع حمص حتى نزل من القلعة لصلاة الجمعة، وكان يحيط به خواصه وأصحابه مزودين بالسلاح، وبالرغم من ذلك فقد وثب عليه ثلاثة منهم وهو في مصلاه، وكان معهم شيخ كبير يقودهم، وكانوا جميعاً مرتدين زي الصوفية، فانقضوا على جناح الدولة بخناجرهم فأردوه قتيلاً كما قتلوا جماعة من أصحابه بالمسجد.(٦٢)

وهذه الجريمة تعد من أولى الجرائم التي قام بها الفداويّة في بلاد الشام، وقد صادف أنها وجهت

---

(٦٢) ابن القلانسي، مصدر سابق، ٢٣٠، وقد جعلها ضمن حوادث سنة ٤٩٦هـ؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٤/٨.

ضد شخصية إسلامية رائدة حملت عبء الجهاد الإسلامي ضد القوى الصليبية في بلاد الشام في بداية مراحله. وقدجاء اغتيال جناح الدولة في صالح الصليبيين بصفة عامة، وريموند بصفة خاصة، وأصبح في مقدوره تحقيق أطماعه في طرابلس.

وتتأكد هذه الحقيقة عندما اغتال الفداويّة خلف بن ملاعب صاحب أفامية، حيث لم تمض سنوات ثلاث على مقتل جناح الدولة إلا وقد تحالف رضوان مع الفداويّة في اغتيال زعامة إسلامية أخرى في المنطقة، وهو خلف بن ملاعب الذي تحمل مهمة الجهاد ضد الصليبيين في المنطقة، فدبرت ضده مؤامرة انتهت بقتله على ايدي الفداويّة مع جمع من أصحابه سنة ٤٩٩هـ(١١٠٦م)، [٦٣] فما كان من تانكرد إلا أن انتهز الفرصة، وهاجم أفامية، واستولى عليها بعد مقتل صاحبها[٦٤]، كما أصبح الطريق ممهداً أمامه للاستيلاء على كفرطاب، وغيرها من أعمال حلب.[٦٥]

ويبدوا أنّ الفداويّة أرادوا أن يتخذوا لأنفسهم مقراً آخر ببلاد الشام غير حلب، بعد أن أحسوا بثقلهم على رضوان ونفور أهل حلب منهم، وما فعله العامة في حلب من سب رضوان والنيل منه بسببهم، لذا فكروا في اتخاذ قلعة شيزر مقراً لهم، وكان أن انتهزوا فرصة خروج صاحبها للتنزه سنة ٥٠٧هـ(١١١٣م) فقاموا بمهاجمتها بغتة، حيث دخلوها على حين غفلة من أهلها، فملكوها وملكوا قلعتها، غير أن صاحبها تمكن من استعادتها من الفداويّة بعد قتال شديد.[٦٦] وبذلك أثار الفداويّة الذعر والخوف في صفوف المسلمين في بلاد الشام ، وأصبح أهل الشام واقعين بين نارين، العدوان الصليبي من جهة، والفداويّة من جهة أخرى.

وكان من بين ضحايا الفداويّة في ذلك الوقت القائد التركي مودود بن أيتكين الذي تزعم حركة الجهاد ضد الصليبيين، والذي اغتالته الفداويّة سنة ٥٠٧هـ(١١١٣م) في جامع دمشق أثناء تأديته صلاة الجمعة.[٦٧] وهذه العملية جاءت في صالح الجانب الصليبي لدرجة أنّ أحد ملوك الصليبيين

(٦٣) ابن القلانسي، المصدر نفسه، ص ٢٤٢.

(٦٤) ابن الأثير، الكامل ٨/٢٣٤.

(٦٥) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية،٢/ ٨٩.

(٦٦) ابن القلانسي،المصدر السابق،٣٠٢-٣٠٤.

(٦٧) ابن القلانسي، المصدر نفسه، ص٢٩٨-٢٩٩؛أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج١ ق١/٦٨-٦٩

انتقد المسلمين بذلك في رسالة وجهها إلى طغتكين صاحب دمشق جاء فيها: «إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها».(٦٨)

وتتمثل فائدة الصليبيين من هذا الحدث بشعور طغتكين بالذنب لاتهام الرأي العام الإسلامي له بضلوعه في تلك الجريمة على حساب مصلحته الشخصية، الأمر الذي جعله لايطمئن لمن يحالفه في المنطقة سوى الصليبيين للاحتفاظ بإمارته ، وحمايته من الصلاجقة، فوضع يده في أيديهم وحالفهم (٦٩). وهذا جانب من جوانب الضعف الذي شهدته الجبهة الإسلامية آنذاك، وكان لفرقة الفداويّة – أداة الفتك الخطيرة ضد الزعماء المسلمين – يدٌ طولى في ذلك.

وبعد أن تولى ألب أرسلان بن رضوان حكم حلب بعد وفاة والده سنة ٥٠٧هـ(١١١٣م) برز في موقفه المعادي من الفداويّة لتعاظم أمرهم آنذاك من ناحية، ولمكاتبة السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه له في أمرهم حيث قال له: «كان والدك يخالفني في الباطنية، وأنت ولدي فأحب أن تقتلهم»(٧٠) فاستغل رئيس الأحداث في حلب صاعد بن بديع هذه الرسالة، وكان قد خشي خطرهم، وشرع في محادثة ألب أرسلان في أمرهم وتمكن من إقناعه بضرورة التخلص منهم، فقبض على زعيمهم أبي طاهر الصائغ، وأمر بإعدامه، كما قتل إسماعيل الداعي، واعتقل أكثر من مائتي رجل من أعيانهم، فحبس بعضهم، وصادر أموالهم كما قام بإعدام بعض غلاتهم برميهم من أعلى القلعة، وتمكن عدد منهم الإفلات فتفرقوا في البلاد، والتجأ عدد منهم إلى الصليبيين.(٧١)

---

(٦٨) ابن الأثير، التاريخ الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية،ص ١٩.

(٦٩) ابن القلانسي، مصدر سابق،ص٢٠٣.

(٧٠) ابن العديم، زبدة الحلب ١٦٨/٢.

(٧١) تاريخ المظيمي، ص٣٨٢؛ ابن القلانسي، المصدر السابق، ص١٨٩–١٩٠؛ ابن الأثير، الكامل، ٢٦٧/٨؛ابن العديم، زبدة الحلب ١٦٨/٢–١٦٩.

ولم تقض هذه المحاولة على الفداوية بحلب، إذ عادوا إلى قوتهم السابقة، وذلك بفضل ألب أرسلان نفسه الذي أشار المؤخرون بأنه انغمس في اللهو وسوء التصرف، مما أتاح الفرصة للباطنية لمعاودة نشاطهم من جديد، متخذين حلب قاعدة لهم.(٧٢) إلا أنّ أمرهم في حلب لم يعد كما كان عليه في زمن رضوان، فضلوا على هذه الحال حتى كان حكم بلك بن بهرام الأرتقي لحلب سنة ٥١٧هـ(١١٢٣م) الذي وجد أنه من المصلحة تنظيم الجبهة الداخلية في حلب قبل التفرغ لمواجهة الصليبيين، ولن يتحقق له ذلك إلا بضرب الفداوية الذين استفحل خطرهم في حلب، فأمر بإخراجهم من حلب، وقبض على قائدهم نائب بهرام الداعي، واعتقله فباعوا أموالهم ورجالهم، وخرجوا من حلب.(٧٣)

ولم يضعف شأن الفداوية كثيراً في بلاد الشام بما حلّ بهم على يد بلك بن بهرام بن أرتق، فقد تزعم أمرهم أحد رجالهم البارزين وهو بهرام الأسترياذي، وتجمع معه كثير منهم في خفية واستتار، حتى ظهر أمرهم في دمشق سنة ٥٢٠هـ(١١٢٦م) نتيجة علاقة مودة ربطته مع ظهير الدين طغتكين الذي تقرّب منه اتقاءً لشره، وتنازل له عن ثغر بانياس في السنة نفسها، فغدت بانياس حصناً للباطنية استعاضوا بها عن حلب إلى حدٍ ما، الأمر الذي أدى إلى استفحال خطر الفداوية في المنطقة.(٧٤)

ويعبر ابن القلانسي عن ذلك بقوله :« فلما حصل فيه [يعني ثغر بانياس] اجتمع إليه أوباشه من الرعاع، والسفهاء والفلاحين، والعوام، وغوغاء الطغام، الذين استغواهم بمحاله وأباطيله، واستمالهم بخدعه وأضاليله، فعظمت المصيبة بهم، وجلّت المحنة بظهور أمرهم وشينهم، وضاقت صدور الفقهاء والمتنيين، والعلماء، وأهل السنّة، والمتقدمين، وأهل الستر والسلامة من الأخيار المؤمنين، وأحجم كلٌ منهم عن الكلام فيهم، والشكوى لواحدٍ منهم، دفعاً لشرهم، وارتقاباً لدائرة السوء عليهم لأنهم شرعوا في قتل من يعاندهم، ومعاضدة من ينازعهم على الضلال».(٧٥) أما ابن الأثير فقد عبّر عن استيلاء الفداوية على بانياس بأنّ ذلك جاء كارثة على البلاد، يقول عن بهرام: «فعظم حينئذٍ خطبه وجلت المحنة بظهوره، واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين لاسيما أهل السنة والستر والسلامة

---

(٧٢) ابن العديم، مصدر سابق،٢/١٧١.

(٧٣) المصدر نفسه،٢/٢١٦.

(٧٤) ابن القلانسي،ص ٢٤٢-٢٤٣ ؛ ابن الأثير، الكامل ٨/٣١٩-٣٢٠.

(٧٥) تاريخ دمشق ، ص ٢٤٣.

إلا أنهم لايقدرون على أن ينطقوا بحرف واحد خوفاً من سلطانهم أولاً، ومن شر الإسماعيلية ثانياً، فلم يقدر أحد على إنكار هذه الحال فانتظروا بهم الدوائر» (٧٦) وقد أثار ذلك العمل عدداً من المعاصرين، واعتبروه كارثة حلّت بالأمة، وحسب ذلك سيئة من سيئات طغتكين في حق الإسلام والمسلمين، خصوصاً وأنّ الفداوية بزعامة بهرام قد اتخذوا من بانياس قاعدة لهم انطلقوا منها للاستيلاء على مزيد من التحصينات، فاستولوا على حصن القدموس(٧٧) سنة ٥٢٧هـ (١١٣٣م)، ويذكر ابن الأثير أنّ هذا الحصن كان تابعاً لبوهيمند الثاني – صاحب أنطاكية – وأنه كان يحكمه نيابة عنه ابن عمرون فاشتراه الفداوية منه، وصعدوا إليه وحاربوا من جاورهم من المسلمين والصليبيين معاً.(٧٨)

وقد واصل الفداوية أعمالهم ضد المسلمين، ولم يستطع أحد الاعتراض عليهم أو الوقوف في وجوههم لحماية طغتكين لهم من ناحية، ولعنف وسائلهم ووحشية انتقامهم من ناحية أخرى، إذ «شرعوا في قتل من يعاندهم، ومعاضدة من يؤازرهم على الظلال، ويرفدهم بحيث لاينكر عليهم سلطان ولاوزير، ولا يفل حدّ شرهم مقدم ولا أمير».(٧٩) غير أنّ بهرام لقي حتفه في السنة التالية وهو في طريقه للاستيلاء على مزيد من التحصينات، في مواجهة تمت بينه وبين جماعة من أهل وادي التيم سبق أن قام بقتل أحد زعمائهم، ولكنه كان قد استخلف على بانياس رجلاً من أصحابه اسمه إسماعيل العجمي.(٨٠) ومن نشاطات الفداوية في المنطقة في تلك المرحلة اغتيال آق سنقر البرسقي، صاحب الموصل في ذي القعدة سنة ٥٢٠هـ (نوفمبر١١٢٦م)، وهو الرجل الذي تحمّل عبء الجهاد ضد الصليبيين في شمال الشام، بعد أن عجز حكامه عن الصمود في وجه الصليبيين، وقد قام ثمانية من الفداوية في زي زهّاد بالوثوب عليه أثناء تأديته صلاة الجمعة بجامع الموصل، وكان لابساً درعاً من حديد وحوله جمع من حرسه، ولكنهم وصلوا إليه فضربوه بسكاكينهم حتى أثخنوه، وحمل إلى داره

---

(٧٦) الكامل، ٢٢٠/٨.

(٧٧) حصن القدموس، حصن قديم غربي مصياف بينها وبين بانياس (ابن العديم، مصدر سابق،٢٥١/٢).

(٧٨) الكامل، ٢٤١/٨.

(٧٩) ابن القلانسي ، المصدر نفسه ص ٢٤٢.

(٨٠) المصدر نفسه ص٢٥٢ .

جريحًا فمات في اليوم نفسه.[٨١] وكان البرسقي قبيل مقتله قد حقق انتصارات رائدة ضد الصليبيين، لذا فرح الصليبيون كثيرًا بمقتله، وانتهزوا فرصة اضطراب الأحوال في بلاد الشام بعد مقتله، فقاموا بمهاجمة عدد من القرى والضياع الآمنة في شمالي حلب بقيادة جوسلين، بل تعدى الأمر إلى مهاجمة حلب نفسها، وكادت المدينة أن تسقط في أيديهم.[٨٢]

ومما يثير التساؤل والعجب أن بوهيمند الثاني صاحب أنطاكية قد أرسل إلى مسعود بن البرسقي في حلب يخبره بمقتل والده قبل أن يصل إليه الخبر. ويعلل ابن الأثير ذلك بقوله: « وكان قد سمعه الفرنج قبله لشدة عنايتهم بمعرفة الأحوال الإسلامية».[٨٣] ولكن هذا يثير بعض الشكوك في وجود اتفاق مسبق بين الصليبيين والفداوية لاغتيال هذا الزعيم المسلم.[٨٤]

وقد ألقى البنداري الضوء على الدوافع المباشرة لاغتيال الفداوية للبرسقي، فأشار إلى وجود عداء مستحكم بينه وبين الدركزيني – وزير السلطان السلجوقي محمود – وكان الدركزيني مائلاً للباطنية محبًا لهم، فعمل جاهدًا لإقناع السلطان بعزل البرسقي، فلم ينجح في مسعاه، وحاول الكيد له فلم يفلح وفشل، الأمر الذي جعله يتفق مع أحلافه الفداوية على اغتياله فتمّ له ما أراد.[٨٥]

أما ابن أبي الدم فيتوقع سبباً آخر لاغتيال الفداوية للبرسقي، وهو الانتقام منه لقيامه في العام

---

(٨١) ابن القلانسي، مصدر سابق، ص٢١٤؛ ابن العديم، مصدر سابق، ٢/٢٣٤؛ ابن الأثير، الكامل، ٨/٣٢٠. وقد أورد ابن الأثير أنّ البرسقي قد رأى تلك الليلة في منامه أنّ عدة كلاب وثبت عليه ، فقتل بعضها ، ونال منه الباقي ما أذاه فقص رؤياه على أصحابه ، فنشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام ، فقال لهم : «لا أترك الجمعة لشيء أبداً»، وأخذ المصحف ليقرأ فيه ، فكان أول ما وقع عليه نظره قوله تعالى : « وكان أمر الله قدراً مقدورا » فخرج إلى الجامع كعادته ، وكان يصلي في الصف الأول ، فوثب عليه بضعة عشر نفراً، وكانوا في عدة الكلاب التي رآها في منامه ، فجرحوه بالسكاكين ، فجرح هو بيده ثلاثة منهم ، وأثرت فيه الجراح فمات.(الكامل، ٨/٣٢٠) وما ذكره ابن الأثير ذكر مثله النويري أيضًا في نهاية الأرب،٢٧/٢٦-٢٧ وربما أنه ناقل عنه

(٨٢) ابن العديم،٢/٢٣٨.

(٨٣) الكامل،٨/٣٢٠-٣٢١.

(٨٤) عماد الدين خليل، المقاومة الإسلامية،ص١٢٧.

(٨٥) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٣٥-١٣٦.

السابق لمقتله بقتل جماعة من الفداوية أدانهم بقتل القاضي أبي الفضل بن الخشاب في حلب.[٨٦]

ويبدو أن طغتكين أحسّ بعد ذلك بخطورة الموقف، وخاف من الآثار السيئة التي صاحبت استيلاء الفداوية على بانياس واتخاذها معقلاً لنشاطاتهم الإجرامية، وما قام به بعد ذلك من أعمال. لذا فقد حاول التخلص منهم، ولكنه توفي بعد قليل، فما كان من الفداوية إلا أن استغلوا وفاته في أول سنة ٥٢٢هـ(١١٢٨م)، وسعوا إلى الاتفاق مع الوزير أبي علي بن سعد المزدقاني وزير ابنه تاج الملوك بوري الذي خلفه في الحكم على تسليم دمشق للصليبيين في مقابل حصول الوزير على صور التي كان الصليبيون قد استولوا عليها من الفاطميين سنة ٥١٨هـ(١١٢٤م).

وقد رسم المزدقاني خطة لهذه العملية، فطلب من الصليبيين أن يحضروا إلى دمشق في يوم جمعة عينها لهم، حيث يكون الناس في المسجد. وفي الوقت نفسه اتفق مع الفداوية أن يكونوا على أبواب المسجد، حتى لا يتمكن أحد من الخروج حتى يأتي الصليبيون ويملكوا المدينة.[٨٧]، وبعد أن علم بوري بذلك وتأكدت لديه المؤامرة قبل تنفيذها استدعى وزيره المزدقاني، وأمر بقتله في السابع عشر من شهر رمضان المبارك سنة ٥٢٣هـ(١١٢٩م)، وعلق رأسه على باب القلعة، ونادى في البلد بقتل الفداوية، فقتل منهم جمع عظيم. قدره بعض المؤرخين بنحو ستة آلاف نفس.[٨٨] ولا شك أنّ هذه المقتلة قد أسهمت في شلّ حركتهم في بلاد الشام إلى حين.

وحينما علم الفداوية في بانياس بما حلّ بإخوانهم في دمشق، أسقط في أيديهم، وخافوا على أنفسهم، فقرر رئيسهم إسماعيل مراسلة الصليبيين ليسلمهم بانياس على أن يسمحوا له بالالتجاء إليهم، فقدم الصليبيون بزعامة بلدوين الثاني إلى بانياس وتسلموها من الفداوية الذين فرّ منها سنة ٥٢٣هـ(١١٢٩م). أما زعيمهم إسماعيل، فقد تسلل مع عددٍ من رفاقه إلى الأعمال الصليبية، وفي الطريق أصيب بعلّة هلك على إثرها في أوائل سنة ٥٢٤هـ (١١٢٩م).[٨٩] وفوق ذلك، فقد قام

---

(٨٦) التاريخ المظفري،ورقة ٩٩ب.

(٨٧) ابن الأثير، الكامل، ٣٢٩/٨؛أبوالفداء، المختصر في أخبار البشر،٢/٣-٣؛النويري،نهاية الأرب في فنون الأدب،ج٢٧،ص٨٠.

(٨٨) ابن القلانسي، مصدر سابق، ٣٥٤؛ابن الأثير، الكامل،٣٢٩/٨ ؛أبو الفداء، المختصر،٢/٣.

(٨٩) ابن القلانسي، مصدر سابق، ص٣٥٦؛ابن الأثير، الكامل،٨/ ٣٢٩.

الصليبيون بالإغارة على دمشق منتهزين فرصة اضطراب الأحوال فيها، ولم يرجعوا عن دمشق حتى أنزلوا بها أضراراً بالغة.(٩٠)

أما الفداوية في ألموت، فلم يسكتوا للمذبحة التي أقامها بوري على إخوانهم في دمشق، فخططوا لاغتياله، وذلك عن طريق رجلين خراسانيين أرسلا إلى دمشق لهذا الغرض، وقد تنكر هذان الخراسانيان في زي الأتراك، وقدما دمشق، وتمكنا من الانخراط في سلك الخدم، وتدرجا حتى وصلا رتبة حراسة مركب بوري نفسه. وأخذا يتحينان الفرصة حتى كان يوم الخميس الخامس من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٢٥هـ(١١٣٠م) انتهزا فرصة رجوع بوري من حمامه إلى داره بالقلعة فتلكأ في الانصراف حتى تفرق عنه أصحابه، فهجما عليه وطعناه عدة طعنات أدت إلى إصابته بجرحين في رقبته وخاصرته، فعلم أصحاب بوري بالحادث قبل فرارهما، فانقضوا عليهما، وقتلوهما في الحال، وأخذ بوري لطبيبه للعلاج حتى برىء وتماثل للشفاء، وتمكن من العودة لمباشرة مهامه من جديد.(٩١) غير أنّ الجرح الذي أصيب به في خاصرته لم يندمل تماماً، فلم يلبث أن انبعث عليه من جديد حتى أودى بحياته في الحادي والعشرين من شهر رجب سنة ٥٢٦هـ(١١٣٢م).(٩٢)

وكان الصليبيون هم المستفيدين من هذه الأعمال، وبخاصة بعد موت البرسقي إذ أنّ هذا يعيق الجهود المبذولة لمحاولة توحيد الجبهة الإسلامية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنه يتيح لهم تعزيز كياناتهم في المنطقة، فاستغل الصليبيون فرصة عدم وجود زعامة قوية توحد صفوف المسلمين وتقف في وجوههم، وأخذوا يعيثون فساداً في المنطقة، ويهاجمون البلاد، ولكنّ هذا الوضع لم يستمر طويلاً إذ سرعان مايبرز في الساحة رجلٌ لايقل كفاءة عن سابقيه وهو عمادالدين زنكي الذي استكمل الجهود في سبيل توحيد الجبهة الإسلامية، وخلفه بعده نورالدين محمود الذي عاصر وجوده شيخ الجبل الباطني راشد الدين سنان الذي كان يغلي حقداًوسخطاً على نورالدين وعلى أهل السنة عموماً.(٩٣) وعلى الرغم مما حلّ بالفداوية من دمار وتشريد على أيدي عددٍ من قادة المسلمين في بلاد

(٩٠) ابن القلانسي، المصدر نفسه،٣٥٥-٣٥٦؛النويري، نهاية الأرب،٢٧/٨٠-٨١.

(٩١) المصدر نفسه،٣٦٥- ٣٦٦؛ النويري، المصدر السابق،٢٧/٨١.

(٩٢) نفسه، ٢٧٠؛ ابن الأثير، الكامل ٨/٣٢٤ ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١/٢٩٦.

(٩٣) أسامة زكي زيد، مرجع سابق، ١٩٨.

الشام في ذلك العصر، فإنّ نشاطهم العدائي للمسلمين عامّة وأهل السنة خاصة لم ينقطع، بل إنه ظلّ عائقًا أساسيًا في سبيل توحيد الجبهة الإسلامية آنذاك فقد نجحوا في سنة ٥٣٥هـ(١١٤٠م) في امتلاك حصن مصياف(مصياث) «بحيلة دبرت عليه ومكيدة نصبت له».(٩٤)

ثمّ إنّ نشاط الفداوية ضد الجبهة الإسلامية لم يقتصر على بلاد الشام وإنما امتد إلى مصر، ففي القاهرة أشير الاتهام إليهم في تنفيذ عملية اغتيال الوزير الأفضل في أحد طرق القاهرة سنة ٥١٥هـ(١١٢١م).(٩٥)

تحالف الفداوية مع الصليبيين ضد المسلمين:

لم يفرق الفداوية في تعاملهم بين المسلمين والصليبيين في المنطقة، بل إنهم لم يتورعوا عن التحالف مع الصليبيين ضد قادة الجهاد الإسلامي. فقد عمل الفداوية على وضع أيديهم في أيدي الصليبيين مرات عديدة محاولة منهم للضغط على زعماء الجبهة الإسلامية من ناحية، وحرصاً على تحقيق أكبر قدر لهم من المكاسب في المنطقة من ناحية أخرى. وتاريخ الفداوية مليء بمثل تلك المحالفات التي رحّب بها الصليبيون، ووجدوها فرصة لمعرفة أسرار الجبهة الإسلامية عن قرب، بل وصل الأمر بهم إلى أن اتخذوا هذه الفرقة، وخاصة الفداوية منهم، أداة لتنفيذ مخططاتهم ضد زعماء المسلمين.

ويصعب هنا استعراض كل الصور التي تحالف فيها الفداوية مع الصليبيين، وإنما سنكتفي هنا بإيراد عدد من الأمثلة فقط لتسجيل هذه الظاهرة، ومنها:

- التحالف بين ريموند صاحب أنطاكية والفداوية في بلاد الشام ضد نورالدين محمود، وهجومهم المفاجيء عليه في أفامية سنة ٥٤٣هـ(١١٤٨م) مما اضطر نورالدين إلى التقهقر.(٩٦)

- اعتماد القائد الصليبي ريموند دي بواتييه على الفداوية سنة ٥٤٤هـ(١١٤٩م) أثناء محاربته نورالدين، ويبدو أن الفداوية قد أنكروا على نورالدين إبطاله لكثير من شعائر الشيعة في دولته، لذا لم

---

(٩٤) ابن القلانسي، مصدر سابق،ص ٤٢٨.

(٩٥) سعيد عاشور،مرجع سابق،١/٥٤٢.

(٩٦) ابن القلانسي، مصدر سابق، ٤٧٤.

يترددوا في الوقوف إلى جانب الصليبيين ضده.[٩٧]

كما أنّ الفداوية لم يسهل عليهم إسقاط الدولة الفاطمية الشيعية في مصر، وتسلم صلاح الدين الأيوبي زمام الأمور فيها سنة ٥٦٧هـ(١١٧١م)، وإزالته لكثير من شعائر التشيع فيها، الأمر الذي أثارهم ضده، مما أدى إلى انضمامهم إلى الملك الصليبي عموري الأول ملك بيت المقدس سنة ٥٦٨هـ (١١٧٢م) [٩٨] وإعلان استعدادهم الوقوف معه ضد نور الدين، أو صلاح الدين لأنهم اعتقدوا أن الصليبيين أقل خطراً عليهم منهما، ولكن الفداوية طلبوا ثمنًا لتحالفهم مع الملك عموري وهو أن يأمر بإعفائهم من الضريبة التي يأخذها منهم الداوية والتي تبلغ ألفي دينار، وكان أن رحب الملك عموري بهذا العرض ترحيباً بالغًا، واعتبرها فرصة للاستفادة من هذه الفرقة وإمكانياتها، فكاتب الملك عموري الداوية بإعفاء الفداوية من الضريبة المفروضة عليهم.[٩٩]

وعلى الرغم من عدم تأثر صلاح الدين بهذا التحالف إلا أنه أثبت ولاء هذه الفرقة لأعداء المسلمين، وتكشف موقفهم من الجبهة الإسلامية.

وانتقل صلاح الدين إلى بلاد الشام ليعيد توحيد الجبهة الإسلامية تحت قيادته بعد وفاة نورالدين محمود سنة ٥٦٩هـ(١١٧٤م)، وأثار ذلك مخاوف الفداوية، فقرروا التخلص منه عن طريق الاغتيال، فدبر مقدمهم وزعيمهم آنذاك راشد الدين سنان المؤمرات لاغتيال صلاح الدين، وأرسل فداويته لقتله أكثر من مرة لكن هذه المحاولات باءت كلها بالفشل، وانكشف أمرهم.[١٠٠]

وفي الجانب الآخر، فقد حرص سنان على كسب صداقة الملك الصالح إسماعيل بن نورالدين صاحب حلب والتقرب إليه، وكان يعرض خدماته عليه دائمًا ويلبي خدماته، وقد أثبت ذلك حينما أراد الملك الصالح التخلص من وزيره شهاب الدين العجمي، فقام راشدالدين بإرسال فداويته يوم الجمعة الرابع من شهر ربيع الأول سنة ٥٧٣هـ (أغسطس ١١٧٥م) واغتالوه، ويشير ابن العديم أنّ ذلك تمّ

---

(٩٧) أبوشامة، الروضتين ١/٥٧.

(٩٨) ابن واصل، مفرج الكروب ١/٢٤٩؛ المقريزي، السلوك ج١، ص٦٢.

(٩٩) عاشور، الحركة الصليبية ٢/٧٠٨-٧٠٩.

(١٠٠) ابن واصل، المصدر نفسه ٢/٥٤؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٦١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٦/٢٧.

بتدبير من سعدالدين كمشتكين أحد كبار قواد الملك بسبب غيرته منه وحقده عليه، فقد انتهز كمشتكين فرصة خروج الملك في رحلة صيد، وقدّم له خطاباً أبيضاًوطلب توقيعه حتى يتمكن من إنجاز بعض الأعمال التي لاتحتمل التأخير حتى يعود من رحلته ، فوقّع الملك ثقة فيه، ولكن كمشتكين كتب فيه خطاباً موجهاً إلى سنان يطلب فيه اغتيال أبي صالح العجمي ، وبناءً على ذلك تمّ اغتياله ، ولما علم الملك الصالح بالأمر كتب إلى سنان يلومه ويؤنبه على فعلته، فما كان من سنان إلا أن أرسل إليه الخطاب الموقع بخطه. فأدرك الملك حقيقة الموقف ، وقبض على كمشتكين .(١٠١) إلى جانب ذلك، فقد قام سنان بمحاولة لاغتيال السلطان صلاح الدين الأيوبي أثناء حصاره لحلب فيما بعد، وقد قصد سنان من ذلك استغلال فرصة تولي الملك الصالح وكان صبياً صغير السن في وقت كان فيه صلاح الدين يعمل على توحيد الجبهة الإسلامية تحت لوائه، وهذا أمر يقلق الفداوية لذلك بادر سنان في محاولة لمساعدة الملك الصالح طمعاً في أن يتمكن من بذر الخلاف بينه وبين صلاح الدين حتى تضعف بانشقاقهما قوى السنة في المنطقة، ويفلت من ضربة متوقعة ، وحتى يخلو الجو له لتحقيق أهدافه.(١٠٢)

ولم يدم هذا الودّ طويلاً إذ انقلب إلى عداء بين الفريقين حينما جاءتهم الطعنة من الملك الصالح سنة ٥٧٥هـ (١١٧٩م) عندما استولى على أحد المواقع التابعة للباطنية ويقال له (بحجيرا) من ضياع نقرة بني أسد، ورفض إعادتها إليهم رغم كثرة مكاتبة سنان له في هذا الأمر الذي أدى إلى عزم الفداوية على الانتقام منه وذلك بإشعال النيران في عدد من المحلات التجارية الواقعة في الطرف الشرقي من سوق الزجاج بحلب رغبة في إثارة الفوضى والاضطراب فيها، وقد أدى ذلك إلى خسائر فادحة في عدد من أسواق حلب.(١٠٣)

وقد أدى موقف الفداوية المعادي لصلاح الدين إلى تصميمه على الانتقام منهم عن طريق الإغارة على عدد من معاقلهم، فقام سنة ٥٧٢هـ(١١٧٦م) بمهاجمة مصياف إحدى معاقلهم المهمة في بلاد الشام، وكادت مصياف أن تقع في يده لولا أن طلب الفداوية الوساطة من شهاب الدين الحارمي

---

(١٠١) ابن العديم، مصدر سابق، ٣٢/٢، ٢٤.

(١٠٢) أسامة زكي زيد، مرجع سابق، ١٧٧-١٧٨.

(١٠٣) أبوشامة، الروضتين،١٦/٢؛ ابن العديم، زبدة الحلب،٢٨/٣، ٢٩.

صاحب حماة وهو خال لصلاح الدين، فتمّ الصلح بينهما ورحل عنها صلاح الدين.(١٠٤)

وقد أدى نجاح صلاح الدين في توحيد الجبهة الإسلامية تحت قيادته إلى تخوف كل من الصليبيين والفداوية منه، الأمر الذي أدى إلى ازدياد ارتباطهم وتحالفهم، تؤكد ذلك الزيارة التي قام بها هنري دوق شامبني (Henri Champane) لحصون الفداوية ومعاقلهم سنة ٥٨٩هـ(١١٩٣م)، حيث استقبله زعيمهم الحسن بن سنان في قلعة الكهف، وهناك وقف هنري على قوة هذه الفرقة، ورأي بنفسه ما يقوم به شباب الفداوية، وما يتميزون به من طاعة عمياء لقائدهم.(١٠٥)

وقد حرص الفداوية في أثناء تلك الزيارة على أن يلفتوا نظر الصليبيين إلى قوتهم وثرواتهم، فقدموا إليه كثيراً من الهدايا، كما عرضوا عليه محالفتهم إياه، واستعدادهم لقتل من يرغب قتله. ويؤكد عاشور- بعد ذلك - أن الفداوية قصدوا من وراء هذه الأعمال تحقيق نوع من التوازن بين الصليبيين ، والأيوبيين مما يضمن البقاء على حساب الجميع.(١٠٦)

وهذا يؤكد أنّ علاقة الصليبيين بهذه الفرقة لم تكن عدائية بصفة دائمة، فقد سادتها عوامل الودّ والصداقة في كثير من الأحيان .

إلا أن هذه العلاقة لا تلبث أن تتعرض لنوع من التدهور والفتور، وذلك حينما يكون الفداوية أداة في أيدي بعض قادة الصليبيين ضد بعضهم البعض، فقد سجل التاريخ أنهم في سنة ٥٤٦هـ(١١٥٢م) قاموا باغتيال ريموند الثاني ، صاحب طرابلس ، والذي يذكر أن زوجته «هوديرن» ابنة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس هي التي أوعزت إلى الفداوية بقتله لخلاف كان قائماً بينهما.(١٠٧)

وفي سنة ٥٨٨هـ(١١٠٢م) قام الفداوية أيضاً باغتيال كونراد دي مونتفرات. وقد اختلفت الآراء

---

(١٠٤) ابن الأثير، الكامل ٩/١٣٩.

(١٠٥) من ذلك أنّ الحسن دعا أحد رجاله من الفداوية فأمره بإلقاء نفسه من أعلى أبراج القلعة على مرأى من الكونت ، فهوى ذلك الفداوي وأصبح جثة هامدة، ثمّ دعا آخر فأمره بقتل نفسه ففعل، فتأثر الكونت بما شاهده، وطلب من الشيخ أن يتوقف عن ذلك لما رآه من مشاهد(وقد أورد أسامة زكي زيد نص هذه الزيارة نقلاً عن المؤرخ اللاتيني هرقل في ملحق خاص ضمن كتابه «الصليبيون وإسماعيلية الشام» ص٣١٩-٣٢٠).

(١٠٦) سعيد عاشور، الحركة الصليبية٢/٨٧٢-٨٧٣.

(١٠٧) عاشور، المرجع نفسه٢/٦٣٠.

حول المحرض على قتله، وإن كانت أصابع الاتهام تشير إلى الملك ريتشارد قلب الأسد بأنه المحرض على ذلك، على حد زعم عدد من المراجع. بينما تشير عدد منها إلى أنّ ذلك راجع إلى وجود عداء بينه وبين راشد الدين سنان زعيم الفداوية .[١٠٨] كما قام الفداوية في سنة ٦١٠هـ(١٢١٣م) باغتيال ريموند الابن الأكبر لبوهيموند الرابع (أمير أنطاكية وطرابلس) في كاتدرائية أنطرطوس ، وكان عمره ثماني عشرة سنة، فاهتز الصليبيون لهذا الحادث، وحزن عليه أبوه حزناً شديداً . يقول ابن واصل: «خافوا واحترزوا لأنفسهم ».[١٠٩]

ويبدو أن الأسبتارية هم الذين حرضوا على قتله نظراً لأنّ الفداوية كانوا آنذاك يؤدون أتاوة لهم، وكانوا على عدم وفاق مع بوهيمند الرابع.[١١٠]

وفي السنة التالية قام الفداوية باغتيال ليورت بطريك بيت المقدس، وكان من أعداء الأسبتارية أيضاً، وقد سعى بعدها بوهيمند للانتقام منهم، وبفضل ما جاءه من مدد من الداوية هاجم قلعة الخوابي (إحدى قلاع الفداوية) سنة ٦١١هـ (١٢١٤م) وكانت تسقط في أيديهم لولا نجدة الملك الظاهر غازي أمير حلب الذي استنجد به الفداوية، فالتمس بدوره المساعدة من السلطان العادل، فرفع بوهيمند الحصار عن الخوابي.[١١١]

وقد ركّز الملك لويس التاسع (ملك فرنسا) جهوده في التحالف مع الفداوية الذين بادؤه بالهدايا فور وصوله إلى الشام حتى يؤمنوا أنفسهم إزاء الموقف الجديد الناشئ عن قيام دولة المماليك في مصر من ناحية، ومحاولة للتخلص من الإتاوة التي كانوا يدفعونها للداوية والأسبتارية من ناحية أخرى، فردّ عليهم لويس بأحسن مما جاؤا به، ورحب بعقد محالفة بين الجانبين.[١١٢]

---

(١٠٨) نفسه،٢/٨٥٠-٨٥١ .

(١٠٩) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ،٣/٢١٩.

(١١٠) عاشور، مرجع سابق،٢/٩١٣؛ عفاف صبره ، مرجع سابق، ٢٢٥.

(١١١) ابن واصل، مصدر سابق،٣/٢٢١.

(١١٢) عاشور، المرجع السابق،٢/١٠٤٦ وقد أورد جوزيف نسيم تتابع العلاقة بين لويس التاسع، وهذه الفرقة بشكل مفصل(انظر: العدوان الصليبي على بلاد الشام،ص٢٢٨-٢٤٥).

انهيار الوجود الباطني في بلاد الشام ومصر:

وهكذا كان موقف هذه الفرقة في بلاد الشام بين مد وجزر ، وتقلب في الولاء بين القوى المتصارعة في المنطقة إلى أن تمّ القضاء على آخر معاقلهم في العراق على أيدي المغول سنة ٦٥٤هـ(١٢٥٦م). أما في بلاد الشام ومصر فقد استمر الفداوية يؤدون نشاطهم في الجبهة الإسلامية طيلة عصر الحروب الصليبية، وكان داعي الفداوية في بلاد الشام أبو المعالي قد انتهز فرصة انهزام المغول من أمام المسلمين، ودخل في معركة مع المغول استرد بعدها بعض القلاع التي كان المغول قد استولوا عليها، ثم قام بقتل بعض الفداوية ممن نسبت إليهم الخيانة أو التعاون مع التتار. يقول ابن ميسر في ذلك: «ولما ملك التتار على بلاد الإسلام... سلّم الإسماعيليون إليهم أربع قلاع من هذه القلاع، فلما كسرهم المظفر قطز عادت الأربع قلاع إليهم، فتسلمها رئيسهم وقتل أصحابه الذين سلموها للتتار».(١١٣)

وقد أدرك الفداوية قوة السلطان بيبرس وحنكته منذ البداية، فأرادوا مهادنته والتودد إليه حيث قدمت فرقة منهم إلى بيبرس وهو محاصر لقلعة الكرك سنة ٦٦١هـ(١٢٦٣م) ومعهم هداياهم، فاستقبلهم بيبرس وأحسن وفادتهم، وعادوا.(١١٤)

وقد ركّز السلطان بيبرس جهوده في هذا الوقت على تقليص نفوذ الفداوية ، وتقليم أظافرهم ، وكان الفداوية يدفعون مبالغ تأمينية (أتاوات) للصليبيين، ومن تبعهم من الداوية والأسبتارية حتى هادن بيبرس الأسبتارية في الكرك واشترط عليهم أن يمتنعوا عن أخذ هذه الأتاوات من الفداوية. وصار الفداوية منذ ذلك الحين يدفعون الأموال للسلطان بيبرس بدلاً من دفعها للصليبيين، فيذكر ابن عبدالظاهر أنّ رسلهم وصلوا إلى مصر في جمادى الآخرة سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٧م) وقالوا: «هذا المال الذي كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت مال المسلمين، لينفق في المجاهدين» (١١٥) وهذا يعني مطلق الإذعان من هؤلاء للظاهر بيبرس. لكن السلطان لم يقتنع بهذا الوضع، بل أخذ يسعى في القضاء على نفوذهم كلية من المنطقة، وبدأ بذلك في سنة ٦٦٧هـ(١٢٦٨م) عندما قدم إليه شمس الدين بن نجم الدين الشعراني شيخ الفداوية في بلاد الشام، فقبض عليه وعلى أصحابه، وسيروا إلى

(١١٣) ابن ميسر، أخبار مصر،٢/٦٨.

(١١٤) الروض الزاهر ص٢٧٤.

(١١٥) السلوك ١/٥٥٧.

مصر وحبسوا بها لاتهامهم بالتعاون مع الصليبيين، واستمرت مضايقتهم حتى تسلم نواب السلطان معاقلهم.[١١٦] وقد أثار هذا الموقف نجم الدين حسن بن الشعراني شيخ الفداوية، وساء القبض على ابنه وسجنه في مصر، الأمر الذي دعاه إلى الامتناع عن الحضور إلى السلطان وتقديم الخدمة إليه وهو محاصر للكرك في جمادى الآخرة من سنة ٦٦٨هـ (١٢٧٠م)، بل إنه بعث إلى السلطان يطالبه بتنقيص ما كان يدفعه لبيت المال.[١١٧]

وقد أثار ذلك السلطان بيبرس، وزاد من حنقه على هذه الفرقة ، لذا فكر بطريقة يضعف بها جانب الفداوية في المنطقة دون الدخول معهم بمواجهة مباشرة ، لأنه يدرك أنّ الوقت لم يحن للدخول معهم بصراع مباشر لانشغاله بالمواجهات المستمرة مع الصليبيين، فبدأ بعزل زعيمهم نجم الدين الشعراني عن مشيخة الفداوية في بلاد الشام، وقلد مكانه صارم الدين مبارك بن الرضي صاحب قلعة القليعة الذي قدم له فروض الولاء والطاعة مما جعل السلطان يقلده مشيخة جميع قلاع الفداوية وهي:الكهف والخوابي، والمنيقة،والعليقة، والقدموس، والرصافة مقابل أن تكون مصياف إقطاعًا للسلطان، وصدّر لهم مرسومًا بذلك.[١١٨] ومعنى ذلك أن نجم الدين الشعراني أصبح معزولاً من الناحية النظرية عن رئاسة الفداوية في بلاد الشام، إلا أن الأمور في بلاد الشام سارت في غير صالح الفداوية، إذ تنكر صارم الدين لموقف السلطان فاستولى على مصياف بالقوة، وأخل باتفاقه، لذا قبض عليه بيبرس وأرسله سجينًا إلى القاهرة، حيث مات في سجنه.[١١٩]

وقد استغل نجم الدين الشعراني هذه الظروف وقدم إلى السلطان بيبرس لإصلاح ماشاب علاقاتهما من توتر، وكان عمر نجم الدين حينئذٍ تسعين عامًا، فرحمه السلطان لكبر سنه، وسامحه عن سابق أخطائه، وعينه على مصياف عوضًاعن صارم الدين، وفرض عليه جزية تقدر بحوالي عشرين ألف درهم يدفعها للسلطان، وبذلك أصبح الفداوية يؤدون الجزية لحكام المسلمين، بعد أن كانت تدفع

---

(١١٦) المصدر نفسه،٥٩٩/١.

(١١٧) نفسه، ٥٨٦/١.

(١١٨) المقريزي، السلوك، ٥٨٧/١.

(١١٩) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر،ص ٣٦٥-٣٦٦.

لهم اتقاءً لشرهم،[١٢٠] وهذا يدل على مدى الضعف الذي وصل إليه الفداوية في تلك المرحلة.

وقد نجح بيبرس في الاستفادة من فدائيتهم في تنفيذ بعض عملياته ضد الصليبيين، فقد استعملهم في محاولة اغتيال الأمير إدوارد ولي عهد انجلترا الذي قدم إلى المنطقة لاستعادة أنطاكية، ورغم عدم تمكن الفداوية من اغتياله، فقد أصابوه بجراح خطيرة، بادر السلطان بإخراج نفسه منها بأن بعث إلى الأمير رسالة ينهنئه فيها على نجاته، وكان قد عقد معه هدنة.[١٢١]

وقد تبين لبيبرس بعد ذلك ضرورة تصفية هؤلاء وإبعادهم عن المنطقة خاصة وأنه أخذ يتفرغ في تلك الأثناء لتصفية الوجود الصليبي من المنطقة، فأخذت معاقل الفداوية تتساقط شيئًافشيئًا في أيدي قوات السلطان، حيث سقطت العليقة في شوال سنة ٦٦٩هـ(١٢٧١م)، بينما استولى نوابه على الرصافة في الشهر نفسه .[١٢٢]

وقد استمرت معاقل الصليبيين بالتساقط تباعاً، وذلك بعد أن حاول سكان حصن الكهف والقدموس والمينقة تنصيب مقدم عليهم بالقلاع.[١٢٣]

ففي سنة ٦٧١هـ(١٢٧٢م) تسلم نواب الملك الظاهر ماتأخر منها، ويبتهج المقريزي بسقوطها في أيدي المسلمين بقوله: «وأقيمت هناك الجمعة وتُرضي عن الصحابة بها، وعُفيت المنكرات منها، وأظهرت شرائع الإسلام وشعائره».[١٢٤]

وقد بقي شيخ الفداوية نجم الدين الشعراني في مصر إلى أن توفي سنة ٦٧٣هـ(١٢٧٤م). وبذلك ضعف دور هذه الفرقة الذين كان لهم أثر سلبي واضح في الجبهة الإسلامية، وتهاوت أستارهم على يد السلطان الظاهر بيبرس الذي نجح في تخليص العالم من عدو كاد أن يمزق العالم الإسلامي إربًا وهم المغول، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل على يديه أيضًا تخليص العالم الإسلامي من خطر

---

(١٢٠) المقريزي، السلوك ١/٥٨٧.

(١٢١) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ٣٨٥.

(١٢٢) المصدر نفسه، ص ٣٨٤، ٣٩٠.

(١٢٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٢/٤٧٣.

(١٢٤) السلوك، ١/٦٠٨.

داخلي كان منغرساً في جسم الأمة الإسلامية، ألا وهم الفداوية.(١٢٥)

إلا أنه يشار هنا إلى أنّه على الرغم من الجهود التي قام بها السلطان الظاهر بيبرس في سبيل القضاء على هذه الفرقة، وتوجه المصادر التاريخية إلى ضعف نشاطهم وانعدامه في أواخر حكم بيبرس إلا أنّ قلاعهم في المنطقة لاتزال تتميز بمظاهر القوة والمنعة مما هدد سلطان المماليك بعد بيبرس، وشكل خطراً ماثلاً على نفوذهم في بلاد الشام.(١٢٦)

لذلك تعين على السلطان المنصور قلاوون الذي تولى السلطنة سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) أن يضع في اعتباره أن تكون هذه القلاع في حوزته، وتحت هيمنته، ولذلك في اتفاقه مع الصليبيين في الهدنة التي عقدها مع كل من الاسبتارية وإمارة طرابلس في المحرم من سنة ٦٨٠هـ (أبريل ١٩٨١م)فحرص السلطان على أن تكون مصياف وبلادها وقلاع الدعوة في المنطقة ضمن ما يخضع السلطان دون منازع.(١٢٧)

وفي مرور الرحالة ابن بطوطة على حصون هذه الفرقة تحدث عنها بقوله: « وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الإسماعيلية، ويقال لهم الفداوية»(١٢٨)

ويشير ابن بطوطة إلى أنّ السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد استعان بهذه الفرقة في الانتقام من أعدائه كما انه خصص لهم مرتبات مقررة نظير ذلك، ويضيف أنّ السلطان إذا أراد أن يبعث أحداً منهم لغرض اغتيال عدو له أعطاه دينه، فإن سلم بعد تنفيذ ما طلب منه فهي له، وإن أصيب فهي لولده ؛ ثمّ يقول ابن بطوطة: « ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بعثوا إلى قتله» (١٢٩)

ويمكن أن يشار هنا إلى أن أصحاب هذه الفرقة ـ وبهذه الصفة ـ قد استعادوا شيئاً من نفوذهم بعد أن اضمحل في عهد بيبرس وكاد أن ينتهي.

---

(١٢٥) عفاف صبره، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٦٠-٢٦١.

(١٢٦) عثمان عبدالحميد عدوي، الإسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية (٤٩١-٦٩١هـ/١٠٩٧-١٢٩٠م)ص٢١٣.

(١٢٧) ورد نص شروط هذه الهدنة في المقريزي، السلوك، ج١/ق٣، ص ٩٧٤- ٩٧٧.

(١٢٨) ابن بطوطة، الرحلة،١/٩٣.

(١٢٩) الرحلة، ١/٩٣.

الخاتمـــة:

من خلال هذا البحث تبين لنا أثر الفداوية السياسي في الجبهة الإسلامية خلال الحروب الصليبية، ذلك الأثر الذي جعل تاريخ هذه الفرقة يمتزج بتاريخ الفريقين المتنازعين في المنطقة، بل إنهم أصبحوا قوة يحسب كل فريق لها حساباً خاصاً، بسبب سياستهم التي تقوم على القتل بمن يخالفهم، فقد ذهب ضحيتهم جمع من زعماء الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في المنطقة، وعدد أيضاً من زعماء الصليبيين الذين حاولوا الوقوف في طريقهم، أو تعارضت مصالحهم معهم.

كما أوضحت لنا هذه الدراسة كيف أنّ هذه الفرقة أصبحت عاملاً من عوامل الفرقة والضعف الذي أصاب العالم الإسلامي آنذاك بمواجهاتها المستمرة مع زعماء المسلمين، وتوجيه الطعنات السامة إليهم من الخلف، وفي تحالفاتهم المستمرة مع قادة الصليبيين، مماشكّل خطراً حقيقياً على الجبهة الإسلامية.

وقد أحسن الصليبيون استغلال وجود هذه الفرقة والخلاف الدائر بينها وبين المسلمين السنّة، لتحقيق مكاسب لهم على حساب الفريقين، وهذا ما أدى إلى تداخل الأطراف الثلاثة فيما بينها، وكل طرف من هذه الأطراف أخذ يتصرف وفقاً لما تمليه عليه مصالحه الخاصة حتى ولو تقلّب في ولائه بين طرفين.

ومما تقتضيه الأمانة التاريخيّة القول بأنّ العلاقة بين هذه الفرقة وبين الفريقين المتحاربين في المنطقة (المسلمين والصليبيين) لم تكن على وتيرة واحدة، ولم تكن موجهة مع فريق ضد الآخر على طول الخط، فقد كانت تتحالف مع الصليبيين ضد المسلمين تارة لتحقيق مصلحة معينة، وينعكس الوضع أحياناً، فيتم تحالف هذه الفرقة مع المسلمين ضد الصليبيين تارة أخرى، وقد مرّ بنا نشاط الفداوية في اغتيال عددٍ من قادة الصليبين في المنطقة. وهذا يعني أنّ مصالحهم الشخصيّة هي التي تملي عليهم مثل هذه المواقف.

فلم ينتج عن علاقات الفداوية بالصليبيين في المنطقة روابط قوية بين الطرفين، ولم تسفر تلك العلاقات عن نتائج حاسمة. وكل ماهنالك وفادات من الرسل والسفارات وتبادل المراسلات في بعض الأحيان، وفي المقابل تهديد من قبل الفداوية وتلويح باستخدام الخناجر المسمومة أحيان أخرى ، وقد سجّل الباطنية أنهم قاموا بعدد من الاغتيالات لعددٍ من زعماء الصليبيين حينما اقتضى الأمر ذلك.

وهذا يعني أن تلك العلاقات كانت تمليها المصالح الخاصة لكل طرف.

ومما يشار إليه هنا أنّ هؤلاء الفداوية لم يتمكنوا من السيطرة على أي من الحكومات الإسلامية، ولم يؤسسوا لهم في المنطقة دولة ذات نظام مستقر، وحتى قلاعهم إن وجدت، فإنها مجرد مقاطعات صغيرة ذات دورٍ محدودٍ، ومآلها في نهاية الأمر إلى السقوط في أيدي زعماء المسلمين كما حدث فعلاً. وهذا أثّر بدوره على عدم استقرار هذه الطائفة في المنطقة.

المصادر والمراجع:

أولاً المصادر:

ابن الأثير : عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري (ت: ٦٣٠هـ/١٢٣٢م).

١ ـ الكامل في التاريخ، ط٤، بيروت. دار الكتاب العربي، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).

٢ ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ومكتبة المثنى ببغداد، ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م).

ابن بطوطة: أبو عبدالله. محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي (ت: ٧٧٩هـ/١٣٧٧م).

رحلته، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار تحقيق وتقديم، علي المنتصر الكتاني، ط٤ بيروت مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).

البنداري: قوام الدين الفتح بن علي البنداري الأصفهاني (ت: ٦٤٣هـ/١٢٤٥م).

تاريخ دولة آل سلجوق، ط٢، بيروت ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م).

ابن تغرى بردى: جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت: ٨٧٤هـ/١٤٦٩م).

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر (د.ت).

ابن خلكان: شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت: ٦٨١هـ/١٢٨٢م).

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، (١٩٧٢م).

ابن أبي الدم الحموي:القاضي شهاب الدين إبراهيم بن عبدالله (ت٦٤٢هـ/١٢٤٤م)

االتاريخ المظفري، ميكروفيلم بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة برقم (٦٠٤).

سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت: ٦٥٤هـ/١٢٥٦م).

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الجزء الثامن، الهند، حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٠هـ (١٩٥١م).

السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكربن محمد (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)

تاريخ الخلفاء، تحقيق:محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت، دار التراث،١٣٨٩هـ (١٩٦٩م).

أبو شامة: شهاب الدين، أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت:٦٦٥هـ/١٢٦٦م).

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج١ تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، ق١ نشر مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة (١٩٥٦م)، ق٢ نشر: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة (١٩٦٢م)، جـ٢، مطبعة وادي النيل، القاهرة (١٢٨٨هـ).

الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م)

الملل والنحل ، تحقيق: عبدالعزيز محمد الوكيل، بيروت دارالفكر، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).

ابن عبدالظاهر: محيي الدين أبو الفضل عبدالله بن عبد الظاهر (ت: ٦٩٢هـ/١٢٩٢م).

الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر: عبدالعزيز الخويطر، ط١، الرياض، ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م).

ابن العديم: كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت: ٦٦٠هـ /١٢٦١م).

زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، المطبعة الكاثوليكية، (١٩٥٤م).

العظيمي: محمد بن علي العظيمي الحلبي (ت: ٦٥٥هـ/١١٦١م علي الأرجح):

تاريخ حلب، تحقيق: إبراهيم زعرور دمشق، ١٣٨٤هـ (١٩٨٤م).

العيني: بدرالدين أبومحمد محمود بن أحمد بن موسى(٨٥٥هـ (١٤٥١م)

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان

الغزالي: أبوحامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١٢م)

فضائح الباطنيّة، تحقيق عبدالرحمن بدوي، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٣٨٣هـ (١٩٦٤م).

أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن علي (ت: ٧٣٢هـ/١٣٣١م).

المختصر في أخبار البشر، بيروت، دار المعرفة، د.ت.

ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم الحنفي المصري (ت: ٨٠٧هـ/١٤٠٤م)

تاريخ الدول والملوك المعروف بـ«تاريخ ابن الفرات» ١٨ مجلد مصور في دار الكتب المصرية بالقاهرة برقم ٢١٩٧.

ابن القلانسي: أبو يعلي حمزة بن أسد بن على التميمي الدمشقي (ت: ٥٥٥هـ/١١٦٠م).
تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، دار إحسان، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).
ابن كثير: أبو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)
البداية والنهاية، ط٢ ، بيروت، مكتبة المعارف (١٩٧٧م).
المقريزي: تقي الدين أحمد بن على (ت: ٨٤٥هـ/١٤٤١م).
كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ط٢ نشر محمد مصطفي زيادة، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٧٠م).
ابن منقذ: أبو المظفر مؤيدالدولة أسامة بن مرشد بن علي(ت٥٨٤هـ/١١٨٨) الاعتبار
ابن ميسر: محمد بن على بن يوسف بن جلب (ت: ٦٦٧هـ/١٢٧٨م)
أخبار مصر، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي بمصر (١٩١٩م).
النويرى: شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت: ٧٣٣هـ/١٣٣٢م).
نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٢٧، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).
ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم الحموى (ت: ٦٩٧هـ/١٢٩٧م).
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيّال، القاهرة (١٩٥٣م).
ابن الوردى: زين الدين عمر (ت: ٧٤٩هـ/١٣٤٨م).
تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق: أحمد رفعت البدراوى، بيروت، دار المعرفة، ١٣٨٩هـ (١٩٧٠م).
ياقوت الحموى: شهاب الدين أبو عبدالله(ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م).
معجم البلدان ط٢ بيروت: دار صادر، ٤٠٤هـ (١٩٨٤م).
اليونيني: قطب الدين موسي بن محمد البعلبكى (ت: ٧٢٦هـ/١٣٢٥م).
ذيل مرآة الزمان، حيدرآباد الدكن، الهند، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٤هـ (١٩٥٤م).

ثانيًا : المراجع:

أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة،الكويت،١٩٧٥م.

أسامة زكي زيد: الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبيّة (القرن الثاني الميلادي/السادس الهجري)الإسكندريّة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،(١٩٨٠م).

جوزيف نسيم يوسف : العنوان الصليبي على بلاد الشام،هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة، مكتبة الحروب الصليبية، ٢، بيروت، دار النهضة العربية، (١٩٨١م).

حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، القاهرة (١٩٧١م).

حسن إبراهيم حسن:تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي . القاهرة، مكتبة النهضة المصرية،(١٩٦٧م).

رنسيمان «ستيفن»: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العرينى، بيروت، دار الثقافة (١٩٦٧ ـ ١٩٦٨م).

سعيد عبدالفتاح عاشور:الحركة الصليبية، ط٣، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية (١٩٧٨م).

سهيل زكار:الحروب الصليبية، دمشق، دار حسان، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).

طه أحمد شرف الدين: الدولة النزارية، القاهرة، ١٩٥٠م.

عثمان عبدالحميد عشوي،الإسماعيليون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبيّة (٤٩١-٦٩١هـ/١٠٩٧-١٢٩٠م)، القاهرة، المكتبة التاريخية، ١٩٨٢-١٩٨٣م.

عفاف سيّد صبرة:دراسات في تاريخ الحروب الصليبيّة، القاهرة،دار الكتاب الجامعي، ١٤٠٦هـ(١٩٨٥م).

عماد الدين خليل: المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، عصر ولاة السلاجقة في الموصل (٤٨٩ ـ ٥٢١هـ/١٠٩٥ـ ١١٢٧) الرياض، مكتبة المعارف، ١٤٠١هـ (١٩٨١م).

ماركوبولو: الرحالة البندقي (٦٥٢-٧٢٥هـ/١٢٥٤-١٣٢٤م) رحلات ماركوبولو، القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب.(١٩٧٧م).

B. Lewis. The Assassins. A radical Sect. in Islam. (Oxford :1967).